مصطفى لطفى المنفلوطى

العبرات

مكتبة مصر

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

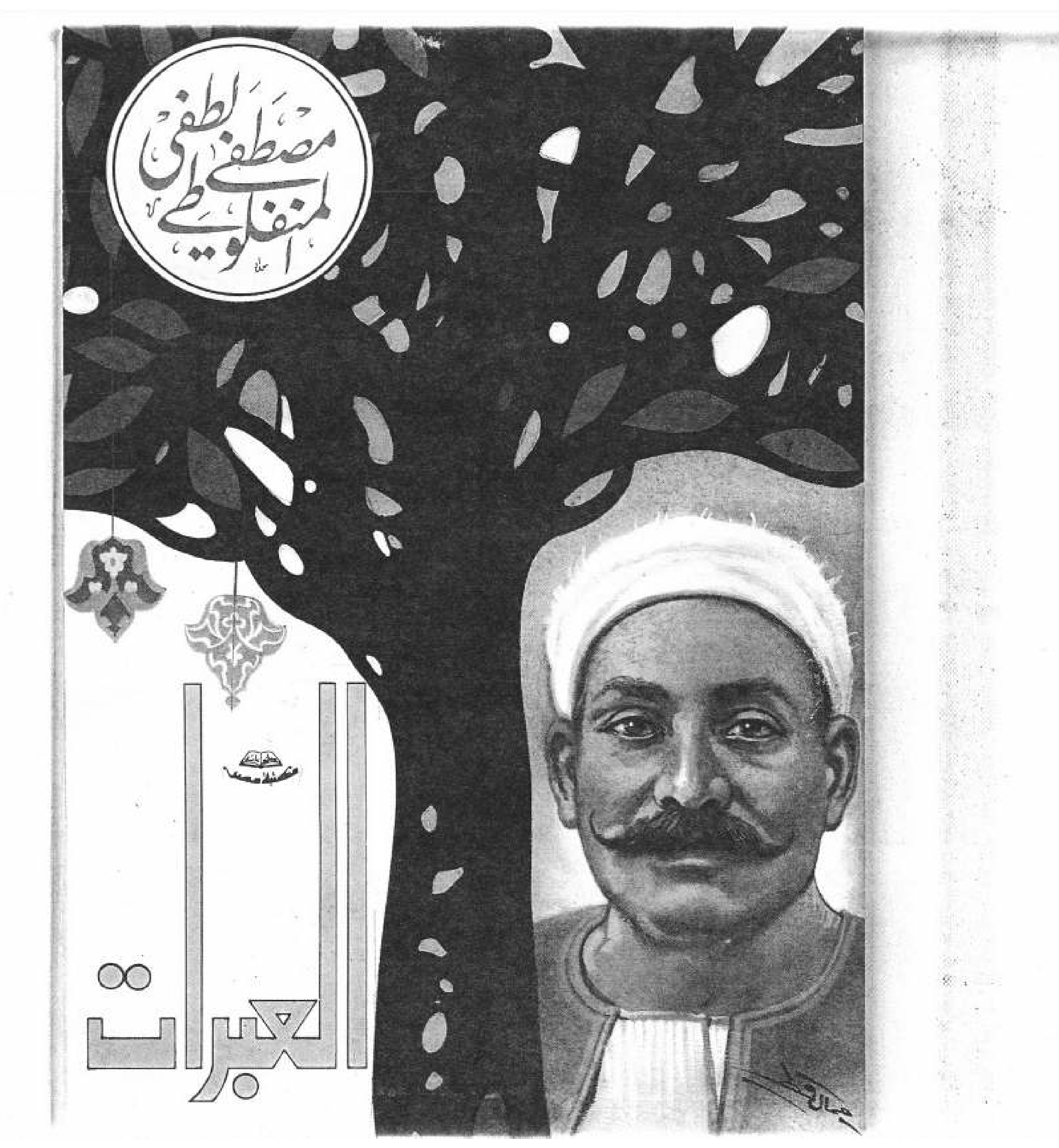
٢ شارع كامل صدقى - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

الثمن ٥٠٠ قرش

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه


مصطفى لطفي المنفلوطي
العبرات

إهـــداء

الأشقياءُ فى الدُّنيا كثيرٌ ، وليسَ فى استطاعةِ بائسٍ مِثْلى أنْ يمحوَ شيئاً من بؤسِهم وشَقائِهم ، فلا أقلَّ من أنْ أسكبَ بينَ أيديهم هذه العَبَراتِ ، علَّهم يجدونَ فى بُكائى عليهِمْ تَعْزِيةً وسَلْوى .

مصطفى لطفى المنفلوطى

اليتيم

« موضوعة »

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلى من عهد قريب فتى فى التاسعة عشرة أو العشرين من عمره . وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى فى مصر ؛ فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبى ، وكانت على كَثَب من بعض نوافذ غرفته . فأرى أمامى فتى شاحباً ، نحيلاً ؛ منقبضاً ، جالساً إلى مصباح منير فى إحدى زوايا الغرفة ، ينظر فى كتاب ، أو يكتب فى دفتر ، أو يستظهر قطعة ، أو يعيد درساً ، فلم أكن أحفل بشىء من أمره .

حتى عدت إلى منزلى منذ أيام بعد منتصف ليلة قَرَّة من ليالى الشتاء ، فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون ، فأشرفت عليه ، فإذا هو جالس جِلْسته تلك :أمام مصباحه ، وقد أكبَّ بوجهه على دَفتَرٍ منشور بين يديه ، على مكتبه ، فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر ، قد عبثت بجفنيه سِنَةٌ من النوم ؛ فأعجلته من الذهاب إلى فراشه ، وسقطت به مكانه ؛ فما رُمتُ مكانى [1]حتى رفع رأسه ، فإذا عيناه مُخضَلَّتان [2]من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التى كان مُكِبًّا عليها قد جرى دمعه

(١) رامَ مكانه : زال عنه وفارقه . (٢) مُخضَلَّتان : مُبْتَلَّتان .

فوقها ؛ فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مِدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، فتناول قلمه ، ورجع إلى شأنه الذى كان فيه .

فأحزننى أن أرى فى ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفردا بنفسه فى غرفة عارية باردة ! لا يتقىَ فيها عادِيَةَ البرد بدثار ولا نار ، يشكو همًّا من هموم الحياة أو رُزْءًا[1]من أرزائها ، قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان ، من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً .

وقلت :« لا بد أن يكون وراءَ هذا المنظر الضارع[2] الشاحب نفسٌ قَرِيحَةٌ معذبة تذوب بين أضلاعه ذَوْبًا ، فيتهافت لها جسمه تهافت الخِبَاءِ المُقوض . »

فلم أزل واقفا مكانى لا أبرحه ، حتى رأيته قد طوى كتابه ، وفارق مجلسه ، وأوى إلى فراشه ، فانصرفت إلى مِخْدَعى ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده فى صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتى عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك فى كثير من الليالى إما باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن أنين الوالِهَةِ الثَّكْلَى ، أو هائمًا فى غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له ، وأبكى لبكائه ، وأتمنى لو استطعت أن أداخله[3]مُدَاخلة الصديق لصديقه وأستبثّه[4]ذاتَ نفسه وأشركَه فى همه ؛ لولا أننى كرهت أن أفْجَأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على

(١) الضّارع : الضعيف النحيل . (٢) الرُّزْءُ : المُصِيبَة .
(٣) داخَلَهُ فى أموره : شارَكَهُ فيها . (٤) استبثّه السر : طلب إليه أن يبثه إياه .

سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه فى صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعا .

حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هَدْأة من الليل ، فرأيت غرفته مظلمة ساكنة ، فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت فى جوف الغرفة أنَّةً ضعيفة مستطيلة فأزعجنى مَسمَعُها وخيل إلىَّ ، وهى صادرة من أعماق نفسه ، كأننى أسمع رنينها فى أعماق قلبى ، وقلت : « إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجِدّ فلا بد لى من المصير إليه . »

فتقدمت [1] إلى خادمى أن يتقدمنى بمصباح ، حتى بلغت منزله ، وصعدت إلى باب غرفته ، فأدركنى من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر ، يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير .

ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بى ، وكأنما كان ذاهلا أو مستغرقاً ؛ فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إلىَّ هُنَيْهَةً لا ينطق ولا يطرِف [2] ، فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت :

« أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً ، وعلمت أنك وحدك فى هذه الغرفة ؛ فعنانى أمرك ؛ فجئتك على أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ »

فرفع يده ببطء ، ووضعها على جبهته ، فوضعت يدى حيث وضعها ، فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمرَرْتُ نظرى على جسمه فإذا خيال سَار لا يكاد يتبينه رائِيهُ ، وإذا قميص فَضْفَاض [3]

---

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به .   (٣) الفَضْفاض : الواسع .

(٢) طَرَف فلان بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر .

من الجلد يموج فيه بدنه موجًا .

فأمرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عندى من أشربة الحمى ، فجَرَّعْتُه منه بضع قطرات ، فاستفاق قليلاً ونظر إلىَّ نظرة عذبةً صافيةً ، وقال :

« شكراً لك . »

فقلت : « ما شِكاتُك أيها الأخ ؟ »

قال : « لا أشكو شيئاً . »

فقلت : « فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ »

قال : « لا أعلم ! »

قلت : « أنت فى حاجة إلى الطبيب ، فهل تأذن لى أن أدعوه إليك لينظر فى أمرك ؟ »

فتنهد طويلاً ونظر إلىَّ نظرة دامعة ، وقال : « إنما يغنى الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ! »

ثم أغمض عينيه ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه . فلم أجد بدًّا من دعاء الطبيب رضِى ذلك أم أبى ، فدعوته ، فجاء متأففاً متذمراً ، يشكو — من حيث يعلم أنى أسمع شكواه — إزعاجَه من مَرْقده وتجشيمَه خَوْضَ الأزقَّة المظلمة فى الليالى الباردة ! فلم أحفل بتعريضه ؛ لأننى أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس فى أذنى قائلاً :

« إن عليلك يا سيدى مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيرا إلا إذا كان فى علم الله ما لا نعلم . »

وجلس ناحيةً يكتب ذلك الأمر الذى يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذى يؤثره ويرضاه .

فأحضرت الدواء ، وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاءَ ، ذاهِلَةَ النجم ،

بعيدةَ ما بين الطرفين ، أسقيه الدواء مرة ، وأبكى عليه أخرى ، حتى انبثق نور الفجر ؛ فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى ، فقال : « أنت هنا ؟ »

قلت : « نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالاً من ذى قبل . »

قال : « أرجو أن أكون كذلك . »

قلت : « هل تأذن لى يا سيدى أن أسألك من أنت ؟ وما مُقامك وحدك فى هذا المكان ؟ وهل أنت غريب فى هذا البلد أو أنت من أهليه ؟ وهل تشكو داءً ظاهراً أو همًّا باطنًا ؟ »

قال : « أشكوهما معاً . »

قلت : « فهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى إلىَّ بهمِّك كما يفضى الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنيًّا بأمرك عنايتك بنفسك ؟ »

قال : « هل تعدنى بكتمان أمرى إن قسم الله لى الحياة ، وبإمضاء وصيتى إن كانت الأخرى ؟ »

قلت : « نعم . »

قال : « قد وثقت بوعدك ؛ فإن من يحمل فى صدره قلباً شريفًا مثل قلبك ؛ لا يكون كاذبًا ولا غادرًا .

« أنا فلان بن فلان ، مات أبى منذ عهد بعيد ، وتركنى فى السادسة من عمرى فقيرًا معدِمًا لا أملك من متاع الدنيا شيئًا ، فكفلَنى عمى فلان ؛ فكان خيرَ الأعمام ، وأكرمَهم ، وأوسعَهم برًّا وإحسانًا وأكثرَهم عطفًا وحنانًا ؛ فقد أنزلنى من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبلى غير ابنته الصغيرة ، وكانت فى عمرى أو أصغرَ منى قليلاً . وكأنما سرَّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعدما تمنى على الله ذلك زمنًا طويلاً فلم يدرك أمنيته ، فعُنِىَ بى عنايته بها وأدخلنا المدرسة

فى يوم واحد ، فأنست بها أنس الأخ بأخته ، وأحببتها حبًّا شديدًا ، ووجدت فى عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التى كانت لا تزال تعاود نفسى بعد فقد أبوىَّ من حين إلى حين .

« فكان لا يرانا الرائى إلا ذاهِبَيْن إلى المدرسة أو عائدَيْن منها ، أو لاعبين فى فناء المنزل أو مرتاضَيْن فى حديقته ، أو مجتمعين فى غرفة المذاكرة أو متحدثين فى غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت فى دراستى .

« ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها عقدًا لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة إلا فى فجر ابتساماتها ، ولا أؤثر على ساعة أقضيها بجانبها جميعَ لذات العيش ومسرات الحياة . وما كنت أشاء أن أرى خَصْلة من خصال الخير فى فتاة من : أدب ، أو ذكاء ، أو حلم ، أو رحمة ، أو عفة ، أو شرف ، أو وفاء إلا وجدتها فيها .

« وإنى أستطيع ، وأنا فى هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان ، أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التى كانت تظللنا معًا أيام طفولتنا ؛ فتشرق لها نفسانا إشراق الرّاح فى كأسها .

« وأن أرى تلك الحديقة الغناء التى كانت مَراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدى أرى لألاء مائها ، ولمعان حصبّائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها .

« وتلك القاعدة الحجرية التى كنا نقتعدها منها طرفى النهار ، فنجتمع على حديث نتجاذبه ، أو طاقة نؤلف بين أزهارها ، أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى فى إتقانه .

« وتلك الخمائل الخضراء التى نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من

أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها .

« وتلك الحفائر الصغيرة التى نحتفرها ببعض الأعواد على شاطىء الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التى ألقيناها فيها بأيدينا ؛ فنطرب إن ظفرنا بشىء منها كأنا قد ظفرنا بغنم عظيم .

« وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التى كنا نربى فيها عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضى الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهى تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسمائها التى سميناها بها ، فإذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبى نداءنا .

« ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره فى نفسى لابنة عمى وداً وإخاءً ، أو حُبًّا وغرامًا ؟ ولكننى أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يومًا إنى أحبها ؛ لأنى كنت أضن بها — وهى ابنة عمى ورفيقة صباى — أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم فى قلبها . ولا قدرت فى نفسى يومًا من الأيام أن أصل أسباب حياتى بأسباب حياتها ؛ لأنى كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلى . ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسقط [1] منها ما يطمع فى مثله المحبون المتسقطون ؛ لأنى كنت أجلُّها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك . ولا فكرت يومًا أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها ؛ لأعلم أى المنزلتين أنزلها من قلبها : أمنزلة الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبى لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه فى صومعته ، يعبدها ولا يتطلع إليها !

« ولم يزل هذا شأنى وشأنها ، حتى نزلت بعمى نازلة من المرض لم

(١) تسقَّط فلان الخبر : أخذه شيئًا بعد شىء .

تَنْشَب [1] أن ذهبت به إلى جوار ربه . وكان آخر ما نطق به فى آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظنًّا : لقد أعجلنى الموت عن النظر فى شأن هذا الغلام ، فكونى له أمًّا كما كنت له أبًا ، وأوصيك أن لا يفقد منى بعد موتى إلا شخصى .

« فما مرت أيام الحداد ، حتى رأيت وجوهًا غير الوجوه ونظرات غير النظرات ؛ وحالاً غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل ؛ فتداخلنى الهم واليأس ووقع فى نفسى للمرة الأولى فى حياتى أننى قد أصبحت فى هذا المنزل غريبًا ، وفى هذا العالم طريدًا .

« فإنى لجالس فى غرفتى صبيحة يوم إذ دخلت علىَّ الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات ، فتقدمت نحوى خَجْلة متعثرة . وقالت : « قد أمرتنى سيدتى أن أقول لك يا سيدى إنها قد عزمت على تزويج ابنتها فى عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التى بلغتماها ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذى تسكنه من القصر ؛ فهى تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها ، على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .»

« فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصْمَتُّ به كبدى ، إلا أننى تماسكت قليلاً ريثما قلت لها : « سأفعل إن شاء الله ولا أحبُّ إلىَّ من ذلك . » فانصرفت لشأنها ، فخلوت بنفسى ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتى ، ما شاء الله أن أطلقها ، حتى جاء الليل ، فعمدت إلى حقيبتى فأودعتها ثيابى وكتبى ،

(١) لم تَنْشَب : لم تلبث .

وقلت فى نفسى :

« قد كان كل ما أسعد به فى هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذى أحببته وأحببت نفسى من أجله ، وقد حيل بينى وبينه فلا آسفُ على شىء بعده . »

« ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بما كان ، و لم أتزود من ابنة عمى قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كِلَّتها[١] وهى نائمة فى سريرها ، فكانت آخر عهدى بها :

لعمـرك مـا فـارقت بغـداد عن قِـلًـى
لـو أنّا وجـدنا مـن فـراق لهـا بُـدّا
كفى حَزَنـا أن رحـت لـم أستطـع لها
وداعًـا ، ولـم أُحْـدِث بسـاكنها عهـدا

« وهكذا فارقت المنزل الذى سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته ، وخرجت منه شريدًا طريدًا حائرًا ملتاعًا ، قد اصطلحت علىَّ الهموم والأحزان . فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا سادَّ لخَلَّته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيًا ، ولا معينًا .

« وكانت معى صُبابةٌ [٢]من مال قد بقيت فى يدى من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية فى هذه الطبقة العليا مسكنًا فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة ؛ فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد فى فضاء الله ومُنْفَسَحَ آفاقه علاج نفسى من همومها وأحزانها . فرحلت رحلة طويلة ، قضيت فيها بضعة أشهر ، لا أهبط بلدة حتى تنازعنى نفسى إلى أخرى ، ولا تطلع علىَّ الشمس فى مكان حتى تغرب عنى فى غيره . حتى شعرت فى آخر الأمر

(١) الكِلَّة : السِّتْر الرقيق .   (٢) الصُّبَابَة . البَقِيَّة من الشىء .

بسكون فى نفسى يشبه سكون الدمع المعَلَّق فى مَحْجَر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

« فقنِعْتُ بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر فى نفسى أن أعيش فى هذا العالم : منفردًا كمجتمع ، وغائبا كحاضر ، وبعيدًا كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسى عن كل شأن سواه ، وأن أستعين على نسيان الماضى باجتناب مواطنه ومظاهره .

« فلزمت غرفتى ومدرستى أداول بينهما لا أفارقهما ، و لم يبق أثر لذلك العهد القديم فى نفسى إلا نزوات تعاود قلبى من حين إلى حين ؛ فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفنى فى خلوتى من حيث لا يعلم إلا الله ما بى ، فأجد برد الراحة فى صدرى .

« لبِثْتُ على ذلك بُرْهة من الزمان ، حتى عدت بالأمس إلى تلك الفَضْلة التى كانت فى يدى من المال فإذا هى ناضبة أو موشكة . وكنت مأخوذًا بأن أهيِّىء لنفسى عيشًا مستقلا ، وأن أؤدى للمدرسةِ قسطًا من أقساطها ، والمدرسة فى هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نَسيئَةً،والعلم فى هذه الأمة مُرْتَزَقٌ يرتزق منه المرتزقون ،لا منحةٌ يمنحها المحسنون؛ فأهمتنى نفسى، وعلمت أنى مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة .

« فعمدت إلى كتبى ، فاستبقيت منها ما لا غنى لى عنـه ، وحملت سائرها[١] إلى سوق الوراقين ، فعرضته هناك يومًا كاملاً ، فلم أجد من يبلغ به فى المساومة ربع ثمنه ؛ فعدت به حزينًا وما على وجه الأرض أحد أذل منى ولا أشقى !

(١) سائر الشىء : باقيه .

« فلما بلغت باب المنزل ، رأيت فى فِنائه امرأة تُسائل أهل البيت عنى ، فتبينتها فإذا هى الخادم التى كانت تخدمنى فى منزل عمى .

« فقلت : « فلانة ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « ماذا تريدين ؟ »

« قالت : « لى إليك كلمة فائذن لى . »

« فصعدت معها إلى غرفتى ، فلما خلونا قلت : « هاتِ . »

« قالت : « مرت بى ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك فى كل مكان ، فلم أجد من يَدُلنى عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك . »

« ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعنى بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذى أحبه بأس .

« فقلت : « ما بكاؤك ؟ »

« قالت : « أما تعلم شيئًا من أخبار بيت عمِّك ؟»

« قلت : « لا ، فما أخباره ؟»

« فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه[1] كتابًا مغلقًا ، فتناولته منها ، فَفَضَضْتُ غِلافَه ، فإذا هو بخط ابنة عمى ، فقرأت فيه هذه الكلمة التى لا أزال أحفظها حتى الساعة :

« إنك فارقتنى ، ولم تُوَدِّعنى ، فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر ، فلا أغتفر لك ألا تأتى إلىَّ لتودعنى الوداع الأخير . »

« فألقيت الكتاب من يدى ، وابتدرت الباب مسرعًا ، فتعلقت الخادم

(١) أضعاف الثوب : أثناؤه .

بثوبى ، وقالت : « أين تريد يا سيدى ؟»

« قلت : « إنها مريضة ، ولا بد لى من المصير إليها . »

« فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : « لا تفعل يا سيدى ، فقد سبقك القضاء إليها . »

« هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكانًا ؛ ثم دارت بى الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها فى مكانى لا أشعر بشئ مما حولى ، فلم أفق إلا بعد حين ؛ ففتحت عينى ، فإذا الليل قد أظلنى ، وإذا الخادم لا تزال بجانبى تبكى وتنتحب ، فدنوت منها ، وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟»

« قالت : « نعم . »

« قلت : « قصِّى علىَّ كل شىء . »

« فأنشأت تقول : « إن ابنة عمك يا سيدى لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك ؛ فقد سألتنى فى اليوم الذى رحلت فيه عن سبب رحيلك ؛ فحدثتها حديث الرسالة التى حملتها إليك من زوجة عمك .

« فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ؟ إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمرى شيئًا . ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر ، كأنما كانت تعالج فى نفسها ألمًا مُمِضًّا[1] .

« « وما هى إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها ، فاستحالت حالها ، غاض ماء جمالها ، وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التى كانت لا تفارق ثغرها ، ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبلُّ [2] يومًا حتى

(١) مُمِض : مُؤْلِم .　　(٢) أبلّ من مرضه : برئ منه .

تتكس أيامًا ، فراع أمها أمرها ، وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب ، وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها ، فلم تدع طبيبًا ولا عائدًا إلا فزعت إليه أمرها ، فما أغنى العائد ولا الطبيب ! وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدًا رويدًا .

« « فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك فى مضجعها ، فدنوت منها ، فأشارت إلىّ أن آخذ بيدها ففعلت ، فاستوت جالسة ، وقالت : « فى أى ساعة نحن من الليل ؟ »

« قلت : « فى الهزيع الأخير منه . »

« قالت : « آأنت وحدك هنا ؟ »

« قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعًا . »

« قالت : « ألا تعلمين أين مكان ابن عمى الآن ؟ »

« فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم ، وقلت : « بلى يا سيدتى أعلم مكانه . »

« « وما كنت أعلم شيئا ، ولكنى أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباق فى يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر من خيوط أجلها ، فقالت : « ألا تستطيعين أن تحملى إليه رسالة منى من حيث لا يعلم أحد بشأنى ؟ »

« قلت : « لا أحب إلىّ من ذلك يا سيدتى . »

« « فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها ، فكتبت إليك هذا الكتاب الذى تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك فى كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين ؛ علنى أراك وأرى من يهدينى إليك ، فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها . فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية ، فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ،

وأن تلك الوردة الناضرة التى كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رُئى مثل يومها يومٌ كان أكثر باكية وباكيًا !

« « وكان أكبر ما أهمنى من أمرها ، أن كل ما كانت ترجوه فى الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة فى نفسى ، ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك . »

« « فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت ، فما انفردت بنفسى حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عينى شيئًا فشيئًا حتى احتجب عن ناظرى كل شئ ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك . »

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفَضّت[1] وأن هذه أفلاذها ، فدنوت منه ، وقلت : « ما بك يا سيدى ؟ » قال لى :

« إنى أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها ! »

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أنى غريب فى هذه الدنيا لا سند لى فيها ولا عضد ، وأنى فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسى ، وأنى عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التى أصابت قلبى قد سحقته سحقًا فلم يبق فيه حتى الذَّماء[2] . وإنى أستحييك أن

---

(١) ارفَضّ الشئ : تفرق وترشش .
(٢) الذَّماء : بقية النفس .

أمد يدى إلى هذه النفس التى أودعتها بيدك بين جنبى فأنتزعها من مكانها وألقى بها فى وجهك ساخطًا ناقمًا ، فتول أنت أمرها بيدك ، واسترد وديعتك إليك ، وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك .»

ثم أمسك رأسه بيده ، كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار ، وقال بصوت ضعيف خافت :

« أشعر برأسى يحترق احتراقًا وقلبى يذوب ذوبًا ، لا أحسبنى باقيًا على هذا ، فهل تعدنى أن تدفننى معها فى قبرها وتدفن معى كتابها إن قضى الله فى قضاءه ؟»

قلت : « نعم ، وأسأل الله لك السلامة .»

قال : « الآن أموت طيب النفس عن كل شيء .»

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها !

لقد هون وجدى على هذا البائس المسكين،أنى استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت فى دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التى دعته فيها أن يوافيها ، فعجز عن أن يلبى نداءها حيًّا فلبّاها ميتًا .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان ، اللذان ضاق بهما فى حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

***

الشهداء

« مترجمة »

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصُبَابة من المال تترشف [١] الرزق منها ترشفًا مصانعة للدهر فيها .

أما الصُّبَابة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده ؛ فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ، ولا عضدًا .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء فى طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فخاطت الملابس حتى عَشِىَ [٢] بصرها ، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت فى المنازل حتى ذلت ، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معًا . فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت فى الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى فى فؤادها فتملأه عزاء وصبرًا ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء فى أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

---

(١) ترشف الإبل الماء : أخذته قليلاً قليلاً . (٢) عَشِىَ بصره : ضعف .

دارت الأيام دورتها ؛ فاكتهلت الأم ، وشب الولد ، وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لابُدَّ له أن يعيش ، وأن يحسن إلى تلك التى طالما أحسنت إليه ، فمشى يتصفح وجوه الرزق وجها وجها ، ويرد مناهله منهلاً منهلاً ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجِدّه حتى مهر فيها .

والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذى يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملاً مغمورًا لا تدر له مهنته إلا القطرة بعد القطرة فى الفَيْنَة بعد الفينة[1] ، فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن يسد خلتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة فى صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائى عنها ، حنت إليه حنين النِّيب[2] إلى فصالها[3] وأحزانها أنها لم تره منذ خمسة عشر عامًا ، ولم تر منه كتابًا منذ عشرة أعوام حتى اليوم . فلا تجد لها بدًا كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذى يفزع إليه جميع البائسين والمحزونين فى بأسائهم وضرائهم ؛ خلوتها ودموعها ، فتبكى ما شاء الله أن تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسمة ، كأن لم تكن باكية قبل ذلك !

دخل عليها ولدها يومًا فى خلوتها ، فرآها تبكى ورأى فى يدها صورة فتبينها ، فإذا هى صورة خاله ، فألم بسريرة نفسها ، وأمسك بين أهداب عينيه دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها ، وقال :

---

(١) الفَيْنَة : الحين . (٢) النِّيب : جمع ناب ، وهى النَّاقة المُسِنَّة .
(٣) الفِصال : جَمْعُ فصيل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فُصِلَ عن أمه .

« رفِّهى عن نفسك يا أماه فستعلمين خبر غائبك عما قليل . »
فتَطَلَّق وجهها وأضاء ، وقالت : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟ »

قال : « قد علمت أن معرِضًا سيقام للرسم فى واشنطون حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدنى بعض أصدقائى أن يساعدنى على الشخوص إليه ، علنى أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهى وأنقذ به نفسى ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره . »

فاستسر بشرها الذى كان متلألئًا ، وقالت : « لا تفعل يا بنى فما أنا بشقية ما رأيتك بجانبى ، وما أنت بشقى ما قنعت بما قسم الله لك ، ولئن فعلت لا تكونن امرأة على وجه الأرض أعظم منى لوعةً ولا أشقى ، ولئن بكيت لفراق أخى مرة فسأبكى لفراقك ألف مرة ، وإنى كلما ذكرته وجدت فى وجهك العزاء عنه ، فمن لى بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معًا ؟ »

فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها فى رحلته الأمانى العذاب حتى أسلست وهدأت وأسلمت إلى الله أمرها .

وما هى إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فإذا الأم وحيدة فى فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب فى أمريكا لا يعرف له سندًا ، ولا عضدًا .

وصل الفتى إلى معرِض الرسم فعرض رسمه هناك ، وكان يمثل فيه موقف للوداع الذى جرى بينه وبين أمه على شاطىء البحر يوم رحيله وكان موقفًا محزنًا فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر فى نفوسهم منظره ؛ فقضوا له بالجائزة التى كان يمنِّى نفسه بها . فما حصلت فى يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهل الأرض طرًّا ، وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ،

وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث ، ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام ، حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه[١] وملأ قلبه غيظًا وحنقًا، أطلع له فى تلك السماء المظلمة المدْلَهِمَّةِ بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته راضيا مغتبطا كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به !

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضًا ، وكتب إليها أنه لن يبرح هذه الأرض حتى يفى لها بما عاهدها عليه ، ومشى فى طريقه يفتش عن خاله فى أنحاء البلاد ويسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين [٢] حتى حدثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض الجزر الجنوبية فى التفتيش عن معدن نُحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك .

فمشى فى الطريق التى علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة موحشة مقفرة ، وكانت لا تزال تغشى سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور الأولى . فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء بعض الجبال المنقطعة ، فما رأوه حتى هاجت فى صدورهم أحقاد تلك العداوة اللونية التى لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شىء أبيض ، حتى للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ، فداروا به دورة سقط من بعدها أسيرًا فى أيديهم ، فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك فى نفق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام » .

هنالك علم أن تلك البارقة التى لاحت له فى سماء السعادة من الأمل يوم

(١) أرابه : شككه وجعله يرتاب . (٢) الطارئون : المهاجرون .

المعرض، إنما هى خدعة من خدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبه ، وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادة وهناء فى مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية فى كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان فى استطاعته أن يخلد للنازلة التى نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذى آده[١] وأثقله ، أن هناك إنسانًا آخر كريمًا عليه يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى المحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ، فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه شيئًا . فلم يعلم : هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شىء حتى نفسها ؟ فلم يزل فى حيرته حتى انقضى الليل ، فانحدر إليه من ثقب صغير فى حائط المحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه، فأنس به أُنسَ الغريب بالغريب، وشكر للشمس رسولها الذى أرسلته إليه ليؤنسه فى وحدته . واستمر بصره عالقًا به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل حتى رآه يتقبض شيئًا فشيئًا ، ويتراجع قليلاً قليلاً ، ثم علا إلى ثقبه الذى انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التى هبط منها . فحزن لفراقه حزن العشير لفراق عشيره ودار بعينيه حول نفسه فإذا قطع سوداء مظلمة تتدجّى وتتكاثف من حوله ويملّس بعضها فى أحشاء بعض .

وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر فى ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى فى ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسًا ، حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه

(١) آدهُ الأمر أودًا : بلغ منه مجهوده .

فوجدها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكيًا منتحبًا .

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ، ولم يبق بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذى يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذى يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسى نفسه ، ونسى أمه ونسى العالم الذى كان يعيش فيه ، والعالم الذى انتقل إليه ، ونسى الليل والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء . وأصبح فى منزلة بين منزلتى الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضى ، ولا يرجو المستقبل . ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسد يتحرك ، أو خيال يسرى ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام .

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه فأصبح من يراها فى طريقها ، يرى عجوزًا حدباء والهة متسلِّبة[1] مذهوبًا بها[2] قد توكأت على عصا ما تزال تضطرب فى يدها ، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوف[3] أهدامًا[4] خلقانًا يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهدابًا متلاصقة أو بِزَقًا[5] متطايرة ، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنائس ، تسأل الله أن يرحَمها ، والناس أن يطعموها .

حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سَمْتها[6] إلى شاطئ البحر

(١) المتسلِّبة : التى أحَدّت على زوجها أو غيره . (٢) المذهوب به : المَسلُوب عقله ، ويقال أين يذهب بك ؟ أى بعقلك . (٣) المحقوف : المُعْوَجُّ .

(٤) الأهدام : جمع هِدْم وهو الثوب البالى المُرَقَّع .

(٥) البِزَق : قطع الثوب الممزقة . (٦) السَّمْت : الطريق .

وجلست فوق بعض صخوره تناجى أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجم كوكبه فى أفق السماء . فإذا سرت إليها نسمة وجدت ريح ولدها فيها . وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها . وإذا تراءت لها سفينة ماخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التى تحمله . فلا يزال بصرها عالقًا بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ فتقف فى طريق ركبانها، تتصفح الوجوه، وتتفرس الشمائل ، وتهتف باسم ولدها صارخة معولة ، وتقول :

« عباد الله ، من يدلنى على ولدى ، أو ينشده لى فى معالم الأرض ومجاهلها ؛ فقد أضللته منذ عهد بعيد ، فحار بى الدهر من بعده ، فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلاً ، فاحتسبوها يدًا عند الله وحدثونى عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم ليأتى على إثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ » فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس فظنها امرأة ملتاثة[1] فرثى لها ، أو سائلة فتصدق عليها !

ولا يزال هذا شأنها فى موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات ، قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن ولم يبق على شاطئ البحر من غاد ولا رائح سواها. فتتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها فى أرض قاعتها وتوهمته مدفنًا لولدها فتظل تبكى وتقول :

« فى أى بطن من بطون الأرض مضجعك يا بنىَّ ، وتحت أى نجم من نجوم السماء مصرعك ، وفى أى قاع من قيعان البحر مثواك ، وفى أى جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك ؟

(١) الملتاث : جُنَّ واختلط .

« لو يعلم الطير الذى مزق جثتك ، أو الوحش الذى ولغ دمك ، أو القبر الذى ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذى طواك فى جوفه ، أن وراءك أمًّا مسكينة تبكى عليك من بعدك لرحموك من أجلى ؟

« عد إلىَّ يا بنى فقيرًا أو مقعدًا أو كفيفًا ؛ فحسبى منك أن أراك بجانبى فى الساعة التى أفارق فيها هذه الحياة ؛ لأقبلك قبلة الوداع وأعهد إليك بزيارة مضجعى مطلع كل شمس ومغربها لتخف بزَوْرتك عنى ضمة القبر ، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة !

« ما أسعد الأمهات اللواتى يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتى يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التى تدب إلى الموت دبيبًا وهى لا تعلم : هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها ستجده أمامها ؟»

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكى ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره ، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبرًا .

دخل السجان على الفتى عشية ليلة فى محبسه ، فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته المثبتة فى الجدار فانتزعها من مكانها ، فلم يقل شيئًا و لم يسائل نفسه هل هى ساعة نجاته أو ساعة حِمامه . ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى . ففتح عينيه فرأى مكانًا غير مكانه ، ومنظرًا غير منظره ، وسماء وأرضًا غير سمائه وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئًا فشيئًا ، حتى استفاق فتذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنالك تذكر السعادة والشقاء ،والغربة والوطن ،والسجن وظلمته،

والقيد ووطأته . ثم طار بخياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعده ، وحنينها ، ويأسها من لقائه ؛ فذرفت عيناه دمعة كانت هى أول دمعة أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل العبرة إثر العبرة ، لا يهدأ ولا يستفيق ، حتى مضى شطر من الليل وهدأ الناس جميعًا فى مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فإنه لكذلك وقد رنَّقت فى عينيه سِنَة من النوم ، إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه ، فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه ، فخيل إليه أن ملكًا نورانيًّا نزل إليه من علياء السماء لينقذه من شقائه ؛ فتبينه فإذا فتاة جميلة بيضاء ، ما التفت الأُزر[1] على مثلها حسنًا وبهاء ، تتمشى فى بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرُّهو[2] الذى يخالط وجه الشمس فى ضحوة النهار ، فسألها : « من أنت ؟ »

قالت : « أنا فتاة من فتيات هذا الحى ، وقد ألممت بشئ من أمرك ، فعلمت أنك شقى فرحمتك مما أنت فيه ؛ فجئتك أطلق وَثاقك لتذهب حيث تشاء،فلا مَثُوبَة يقدمها المرء بين يدى ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب .»

فعجب لزنجية بيضاء ووثنية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنبيها قلبًا يعطف على البؤساء والمنكوبين . وقال فى نفسه : « ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبِّه ، وملك عليه نفسه وهواه . وأنساه كل شأن فى الحياة إلا شأنها فلبث صامتًا واجمًا لا ينطق . »

وقال لها : « اذهبى لشأنك يا سيدتى فإننى لا أريد النجاة . »

(١) الأُزر : جمع إزار .

(٢) الرَّهو :الرقيق .

فعلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه ، وقالت :

« لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلاً ، وانج بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل ، فإذا أنت فِلَذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك فى نفسك ، ولا تفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك فإن شديدًا علىَّ جدًّا أن أراك بعد قليل ذبيحة فى يد الذابح ، أو مضغة فى فم الآكل . »

قال : « إنك لا تستطيعين نجاتى . »

قالت : « لا أفهم ما تقول ، فإننى ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع . »

قال : « قد كنت قبل اليوم موثقًا بوثاق واحد فأصبحت موثقًا بوثاقين ، فإن استطعت أن تحلى وثاق قدمى فإنك لا تستطيعين أن تحلى وثاق قلبى . »

فألمت بسريرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة ، فرفع رأسه إليها ولبث شاخصًا إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تمثاله البديع ، حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جَفنها على وجهه ، فجرت فى مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمعة مثلها فالتقت بدمعتها فامتزجتا معًا .

فمد يده إلى ردائها فاجتذبها إليه ، وقال : « قد طال وقوفك يا سيدتى فاجلسى بجانبى نتحدث قليلاً . »

فجلست على مقربة منه ، فقال لها : « إن امتزاج دمعى بدمعك فى هذه الساعة قد دلنى على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياء أو أمواتًا ، فإن كنت تريدين لى النجاة فإننى لا أنجو إلا بك . »

قالت : « ليتنى أستطيع ذلك يا سيدى . »

قال : « وما يمنعك منه ؟ »

فنظرت إليه نظرة دامعة ، وقالت : « أخاف أن أحبك ! »

قال : « ولم تخافين ؟ »

قالت : « لا أعلم . »

قال : « أنا لا أسألك عما تكتمين فى صدرك من الأسرار ، ولكنى أسألك أن تتركينى وشأنى فى يد القدر يفعل بى ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك . أما اليوم فحسبى عزاء عما ألاقيه من غصصه وآلامه نظرة رحمة تلقينها علىَّ فى مصرعى ، ودمعة حزن تسكبينها من بعدى على تربتى . »

فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهى سِلْكُه فانتثر ، ثم مدت يدها إلى قيده فعالجته حتى انصدع ، وقالت : « إنى ذاهبة معك وليقض الله فىَّ وفيك قضاءه . »

مشيا يطويان القفار ، ويعبران الأنهار ويضحيان[1] مرة ويَخْصَران[2] أخرى ، ويردان آجن[3] المياه وصفوها ويقتاتان يابس الثمار ووطبها ، فإذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبل أويا إليه فاستراحا بجانبه قليلا ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزال تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وأخذا مضجعهما من تربه وأحجاره ، نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها ، ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليبًا صغيرًا

---

(١) ضَحِىَ : برز للشمس . (٢) خَصِرَ : بَرَدَ .

(٣) الآجِنُ من الماء : الذى تغير طعمه ولونه .

فقبلته .

ثم أنشأت تهمهم بكلام خفيٍّ ، كأنها تناجي به شخصًا غائبًا عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة ، وتطلب معونته على أمر لا تعرف مصيره ، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى ، حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها .

وكان كلما سألها عن شأنها، التوت عليه ودافعته عنها حتى تلوم أن يعاودها فتركها وشأنها ، وقد أصبح يحمل فى صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يومًا على سواء العمران ، فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا فى الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء .

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك ، فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقة يتحدثان ، وهى أول مرة جلسا فيها للحديث ، فقال لها :

« ما حفظ الله حياتنا فى هذه السَّفْرة الطويلة فى هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا فى لوح مقاديره سعادة لا أحسب أنه قد أعد خيرًا منها لعباده المتّقين فى جنات النعيم . »

قالت : « ومتى كانت هذه الحياة موطنًا للسعادة أو مستقرًا لها ؟ ومتى سعد أبناؤها بها فنسعد مثلهم كما سعدوا ؟ وإن كان لا بد من سعادة فى هذه الحياة ، فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقدًا أن لا سعادة له فيها ليستطيع أن يقضى أيامه المقدرة له على ظهرها هادئ القلب ساكن النفس ، لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب ! »

قال : « إن السعادة حاضرة بين أيدينا ، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نطوى هذه المرحلة الباقية من هذا القفر ، فنلجأ إلى أول بيت نلقاه فى طريقنا من بيوت الله ، فنجثو أمام مذبحه ساعة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ، ولا يكدر صفونا مكدر . »

فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها ، فقال : « ما بكاؤك يا سيدتى ؟ »

فقالت : « أتذكر ليلة النجاة إذ دعوتنى إلى الفرار معك ، فقلت لك إنى أخاف إن فررت معك أن أحبك ؟ » . قال : « نعم . »

قالت : « وا أسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف . »

ثم صرخت صرخة عالية وقالت : « ماذا يا أماه ؟ »

وسقطت مكبّة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى فى أعضائها فعلم أنها البُرَداء[1] وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ، ومشى يفتش عن الناس فى كوخ كان يتراءى له على البعد ، حتى بلغه فوجد على بابه كاهنًا شيخًا جليل المنظر فدنا منه وحياه تحية حياه بأحسن منها ، وقال له : « ما شأنك يا بنىَّ ؟ »

قال : « إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائى تشكو البرد ، فهل أجد عندك جذوة نار أعود بها إليها لتصطلى بها ؟ »

فمكنه من طلبته ، وقال له : « كتب الله لك ولعليلتك السلامة يا بنىَّ ، فاذهب فإنى على إثرك . »

فعدا الفتى عدوًا شديدًا حتى بلغ النهر فأدهشه أن رأى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو بردًا ولا ألمًا ، فأقبل عليها متهللاً .

وقال لها : « لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام . »

قالت : « ما كان يخالط نفسى من ذلك شئ ، فاجلس أحدثك حديثى فقد آن أن أفضى به إليك . »

(١) البُرَداء : الحُمَّى مع البرد ، وتُسمَّى النَّافِضة .

فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه ، وتقول :

« أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسى ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلى مع الأيام دفينه ، فقد ولدتنى أمى على فراش رجل أبيض وفد من ديار كم منذ عشرين عامًا فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء ، فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولدانى وعشنا جميعًا من الدهر عيش السعداء الآمنين .

« وكان رجال قبيلة أمى لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء فى جنح ليلة من ليالى الظلام ، فاقتادونا جميعًا إلى أرضهم . وكنت إذ ذاك لم أسلُخ العاشرة من عمرى ، فقتلوا أبى أمامى وأمام أمى قتلة لا يزال منظرها حاضرًا بين يدى حتى الساعة لا يفارقنى . فحزنت أمى عليه حزنًا شديدًا ما زال يدنو بها من القبر شيئًا فشيئًا حتى جاءت ساعتها ؛ فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فدعتنى إليها أمامه ، وقالت لى : « يا بنية إن أمى قد ولدتنى للشقاء فى هذا العالم ، وأحسب أنى قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكونى سببًا فى شقاء أحد من بعدك وانذرى نفسك للعذراء نذرًا لا يحله إلا الموت . » فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذرى فتلألأ وجهها بشرًا وسرورًا ، ثم نظرت نظرة فى السماء وقالت : « ها أنذا على إثرك يا رافائيل ، ثم فاضت روحها . »

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : « هل تعرفين وطن أبيك وأسرته ؟ »

قالت : « نعم . »

وسمتهما له فاستطير فرحًا وسرورًا ، وقال : « أحمدك اللهم فقد وجدت

ضالتى . »

فعجبت لأمره ، وقالت : « وأى ضالة تريد ؟ »

قال : « أتذكرين ليلة اللقاء إذ امتزجت دمعتانا معًا فقلت لك إنها صلة بينى وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ »

قالت : « نعم . »

قال : « قد كنت أمُتُّ[1] إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها ، فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى ، فأنت اليوم حبيبتى وابنة خالى معا . »

فقالت بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت لى فى هذه الساعة العصيبة أخا . »

وأخذ جسمها يضطرب اضطرابًا شديدًا ، ووجهها يربدُّ[2] شيئًا فشيئًا ، فذعر الفتى وارتاع وحنا عليها وقال : « ماذا أرى ؟ »

قالت : « لا ترع ، فأصغ إلىَّ ؛ فإن لحديثى بقية لم تسمعها . إننى منذ حفظت وصية أمى ووهبت العذراء نفسى ، كان لا بد لى أن أتخذ لى ملجأ أفزع إليه فى اليوم الذى أخاف أن يغلبنى فيه هواى على دينى ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معى حتى جاء اليوم الذى خفته فلجأت إليها فنجوت وأستودعك الله . »

فنظر الفتى حيث أشارت ، فرأى قارورة مطروحة وراءها فتناولها ، فإذا هى فارغة إلا بقية صفراء فى قرارتها ففهم كل شئ .

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكأن طائرًا

(١) مَتَّ إليه : اتَّصَلَ بِهِ .   (٢) يَرْبَدُّ : يتغيَّرُ لونُه .

قد نفض جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق فى مكانه صعقةً لم يشعر بعدها بشئ مما حوله . فلم يستفق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفًا أمامه يحمل على كفه طعامًا كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائرًا لا يفهم مما يرى شيئًا . فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهًا لوجه ونظر إليه نظرةً شزراء كتلك النظرة التى يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط فى عقله فأخذ يهذى ، ويقول :

« أتدرى أيها الرجل لِمَ ماتت هذه الفتاة ؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم عرض لها الحب فى طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرائمكم يا رجال الأديان التى تقترفونها على وجه الأرض . ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج فى أيديكم تحلُّون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرمًا لا يقبل أخذًا ولا ردًا .

« إن الذى خلقنا وبث أرواحنا فى أجسامنا هو الذى خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش فى هذا العالم سعداء هانئين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه ، والمرء وقلبه ؟

« إن الله بعيد فى علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا فى جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

« إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ؛ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خافقة .

« أتظنون أيها القوم أننا ما خلقنا فى هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرَّحِم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر ؟ بئست الحياة حياتنا إذن وبئس الخلق خلقنا . إننا لا نملك فى هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ، ولا نعرف لنا ملجأ نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

« هذه الطيور التى تغرد فى أفنائها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذى يتردد فى أجوائه إنما يحمل فى أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب فى سمائها ، والشموس فى أفلاكها ، والأزهار فى رياضها ، والأعشاب فى مروجها والسوائم فى مراتعها ، والسوارب فى أجحارها .. إنما تعيش جميعًا بنعمة الحب . فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت ، أيها القساة المستبدون ، أرفع شأنًا من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة ؟!

« فهنيئًا لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ؛ فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم .

« إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ؛ فإنا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

« إن وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ، ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم ؛ فلا بد لنا أن نقف فى وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم ؛ حتى لا تصلوا إليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

«إنا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، وفى استطاعتنا أن نعرف

الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

« كتاب الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آياتكـم ، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغماتكم . هذا الجمال المترقرق فى سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكنه ، إنما هو مرآة نقية صافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقًا متلألئًا فنخرُّ بين يديه ساجدين ، ثم نصغى إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا : أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتم حياة للجمال فاحيوه .

« ذلك أمر الله الذى نسمعه ولا نسمع أمرًا سواه . »

وما إن وصل فى حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، ووهنت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط فى مكانه يزفر زفيرًا شديدًا ، ويئن أنينًا محزنًا ، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه ، وقال له :

« ارفق بنفسك يا بنىَّ ؛ فما أنت بـأول ثـاكل على وجـه الأرض ، ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن فى رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء للمحسنين . »

فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ، ويقول : « اغفر لى ذنبى يا أبت ، فقد كنت من الظالمين . »

قال : « غفر الله لك يا بنىَّ ؛ فما دون رحمة الله باب موصد ولا رتاج معترض . »

قال له : « يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الارض ، وليس لها فيها أحد سواى ، وقد ماتت من أجلى وفى سبيلى ، فهل تأذن لى أن أدنو منها لأقبلها قبلة الوداع فى آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟ »

قال : « افعل يا بنىَّ . »

فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمَّة شديدة وأهوى بفمه على فمها ، فقبَّلها لأول مرة فى حياته قبلة فاضت روحه فيها .

فى الساعة التى دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطئ ذلك النهر الجارى ، مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها الزيارة من حين إلى حين . فنظرت إلى مكانها الذى اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خاليًا ، فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها معفرة بترابها لا حَراك بها ، فملأت بالتراب الذى كان مجتمعًا حول الحفرة تلك الأشبار الخمسة التى هى مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أسبلت فوق تربتها دمعة كانت هى كل نصيبها من الدنيا !

الحجـاب

« موضوعـة »

ذهب فلان إلى أوروبا وما تنكر من أمره شيئًا ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقى مما كنا نعرفه منه شيء

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة . وذهب بقلب نقى طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهّابة نزّاعة لا ترى شيئًا فوقها ، ولا تلقى نظرة واحدة على ما تحتها . وذهب برأس مملوءة حكمًا ورأيًا ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد . وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر فى عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التى يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هى أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغًا ، لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها فى أجواء السماء ، وأن مكان المدنيّة الغربيّة من نفوسهم مكان الوجه من المرآة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها .

فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته على علاته وفاءً بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر ، محتملاً فى سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد

تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلى باحتمال مثله ، حتى جاءنى ذات ليلة بداهية الدواهى ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدى به .

دخلت عليه فرأيته واجمًا مكتئبًا فحييته فأومأ إلىَّ بالتحية إيماء ، فسألته ما باله ، فقال :

« ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة فى عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدرى مصير أمرى فيه .»

قلت : « وأى امرأة تريد ؟ »

قال : « تلك التى يسمّيها الناس زوجتى ، وأسميها الصخرة العاتية فى طريق مطالبى وآمالى .»

قلت : « إنك كثير الآمال يا سيدى فعن أى آمالك تتحدث ؟»

قال : « ليس لى فى الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عينىَّ ثم أفتحهما فلا أرى برقعًا على وجه امرأة فى هذا البلد !»

قلت : « ذلك ما لا تملكه ولا رأىَ لك فيه .»

قال : « إن كثيرًا من الناس يرون فى الحجاب رأيى ، ويتمنون فى أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التى لا تزال تلم بنفس الشرق كلما حاول الإقدام على أمر جديد .

« فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادى [1] القديم الذى وقف سدًّا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرًا طويلاً ، وأن يتم على يدى ما لم يتم على يد أحد غيرى من دعاة الحرية وأشياعها .

(١) العادى القديم : نسبة إلى قبيلة عاد .

« فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته ، وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام ، وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلاً . »

« ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذى ضربه الله على هؤلاء النساء فى هذا البلد أن يعشن فى قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لى أن أبلغ أمنيتى ، وأن أعالج هذا الرأس القاسى المتحجر علاجًا ينتهى بإحدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه . »

فورد علىَّ من حديثه ما ملأ نفسى همًّا وحزنًا ونظرت إليه نظرة الراحم الراثى ، وقلت :

« أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ »

قال : « نعم أقول الحقيقة التى أعتقدها وأدين نفسى بها . واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعًا حيث وقعت . »

قلت : « هل تأذن لى أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة فى ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يومًا من الأيام وأنت فيهم بالطمع فى شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم ، فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ؟ »

قال : « ربما وقع لى شئ من ذلك فماذا تريد ؟ »

قلت : « أتريد أن أقول لك إنى أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك . »

قال : « إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها فى حصن حصين لا تمتد إليه المطامع . »

فتداخلنى ما لم أملك نفسى معه ، وقلت له : « تلك هى الخدعة التى يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثُّلْمة التى يعثر بها فى زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم ؛ فالشرف كلمة لا وجود لها فى قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها فى قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها . والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيًا رائقًا حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر . والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة . »

قال : « أتنكر وجود العفة بين الناس ؟ »

قلت : « لا أنكرها لأنى أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكنى أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب ، والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

« فى أى جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟ »

« أفى جو المتعلمين ، وفيهم من سئل مرة : لِمَ لَمْ يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعًا نسائى ! ؟

« أم فى جو الطلبة ، وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه حياء وخجلاً إن خلت محفظته يومًا من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته ، أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟

« أم فى جو الرعاع والغوغاء ، وكثير منهم يدخل البيت خادمًا ذليلاً ، ويخرج منه صهرًا كريمًا ؟

« وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتَّمَطُّق [1] بحديثها ، والقيام

---

(1) تمَطَّق : صَوَّتَ بلسانه عند استطابة الطعام .

والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم فى أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم ؟!

« هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز !

« أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شئتم ، ودعوا هذا الباب موصدًا ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيمًا وشقاءً طويلاً .

« أرونى رجلاً واحدًا منكم يستطيع أن يزعم فى نفسه أنه يمتلك هواه بين يدى امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدى رجل ترضاه !

« إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه ، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها فى معركة الحياة مخاطـرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

« ما شكت المرأة إليكم ظلمًا ، ولا تقدمت إليكم فى أن تحلُّوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

« إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم فى وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها فى بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ؛ تبرمًا بكم وفرارا من فضولكم ، فوا عجبًا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها!

« إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام

قضيتموها فى ديار يسيل جوها تبرجًا وسفورًا ، ويتدفق خلاعة واستهتارًا ، تودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذى خلفتموه هناك .

« لقد كنا وكانت العفة فى سِقاء [1] من الحجاب موكوء [2] فمازلتم به تثقبون فى جوانبه كل يوم ثقبًا والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض [3] وتكرَّش ، ثم لـم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة !

« عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة فى بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة فى واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدى ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف فى خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاهما . وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هى أن الزواج أساس الحب .

« فقلتم لها : إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأيًا ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم فى هذا السلطان الذى يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذى كان بالأمس عرسًا من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

« وقلتم لها : لا بد لك أن تختارى زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك

---

(١) السِّقاء : وِعاءٌ من جِلْد يكون للماءِ واللبن .

(٢) أوكى القربة : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .

(٣) تقبض : يبس .

عن سعادة مستقبلك ؛ فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

« وقلتم لها : إن الحب أساس الزواج ؛ فما زالت تقلب عينيها فى وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعُنيت به عنه .

« وقلتم لها : إن سعادة المرأة فى حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب فى كل يوم زوجًا جديدًا يحيى من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم ، فلا قديمًا استبقت ولا جديدًا أفادت (١) !

« وقلتم لها : لا بد أن تتعلمى لتحسنى تربية ولدك ، والقيام على شئون بيتك ؛ فتعلمت كل شئ إلا تربية ولدها ، والقيام على شئون بيتها !

« وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا . فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تَر فيه غير أسماء الخليعات المُستَهْتَرات (٢) ، والضحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ؛ فتخلعت واستَهْتَرَت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم. ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضًا ، كما تعرض الأمة نفسها فى سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونَبَوْتم بها . »

« وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعًا ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة

---

(١) أفاد : بمعنى استفاد . (٢) استُهتر فلان : اتبع هواه فلا يبالى بما يفعل .

منكسرة وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

« وكذلك انتشرت الريبة فى نفوس الأمة جميعًا وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائى إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

« ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها !

« نحن نعلم ، كما تعلمون ، أن المرأة فى حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم . فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم فى غدواتها وروحاتها ، كما يرافق الشاة راعيها خوفًا عليها من الذئاب . فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

« أعجب ما أعجب له فى شئونكم أنكم تعلمتم كل شىء إلا شيئا واحدًا، هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شىء، وهو أن لكل تربة نباتًا ينبت فيها ، ولكل نبات زمنًا ينمو فيه !

« رأيتم العلماء فى أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها ؛ فاشتغلتم بها مثلهم فى أمة لا يزال سوادها الأعظم فى حاجة إلى معرفة حروف الهجاء !

« ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها ؛ فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة

ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء، إن كان هناك ما يغنى عنه !

« ورأيتم الرجل الأوروبى حرًّا مطلقًا ، يفعل ما يشاء ، ويعيش كما يريد ؛ لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته فى الساعة التى يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التى رسمها لنفسه فلا يتخطاها ، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية فى رأس منحدر زلق ، إن زلَّت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى فى قرارتها .

« ورأيتم الزوج الأوربىَّ الذى أطفأت البيئة غَيرته وأزالت خشونة نفسه وحُرْشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقىَّ الغيور الملتهب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

« ورأيتم المرأة الأوربية الجريئة المتفتية فى كثير من مواقفها مع الرجال تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها !

« وكل نبات يزرع فى أرض غير أرضه ، أو فى ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

« إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات فى بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم ، كما أزعجتم من قبلهن . فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف . فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعداء آمنين . »

فما زاد الفتى على أن ابتسم فى وجهى ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : « تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها ؛ فلنصطبر عليها حتى يقضى الله بيننا وبينها . »

فقلت له : « لك أمرك فى نفسك وفى أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، وائذن لى أن أقول لك إنى لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسى ؛ لأنى أعلم أن الساعة التى ينفرج لى فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلنى حياءً وخجلاً . » ثم انصرفت ، وكان هذا فراق ما بينى وبينه .

وما هى إلا أيام قلائل ، حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانًا هتك الستر فى منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشيًّا لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عينى دمعة ، لا أعلم هل هى دمعة الغيرة على العرض المُذال ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورنى ، ولا ألقاه فى طريقه إلا قليلاً فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ، ثم أنطلق فى سبيلى .

فإنى لعائد إلى منزلى ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجًا من منزله يمشى مِشية الذاهل الحائر وبجانبه جندى من جنود الشرطة ، كأنما هو يحرسه أو يقتاده ، فأهمنى أمره ، ودنوت منه ، فسألته عن شأنه ، فقال :

« لا علم لى بشىء سوى أن هذا الجندى قد طرق الساعة بابى يدعونى إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة فى مثل هذه الساعة سببًا ، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقى بعد الذى كان

بينى وبينك أن تصحبنى الليلة فى وجهى هذا علّنى أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لى هناك من الشئون ؟»

قلت : « لا أحب إلىَّ من ذلك »

ومشيت معه صامتًا لا أحدثه ، ولا يقول لى شيئًا ، ثم شعرت كأنه يزور[1] فى نفسه كلامًا يريد أن يفضى به إلىَّ ، فيمنعه الخجل والحياء ، ففاتحته الحديث وقلت له :

« ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سببًا ؟ »

فنظر إلىَّ نظرة حائرة ، وقال : « إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتى الليلة حادث ، فقد رابنى من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل .»

قلت : « أما كان يصحبها أحد ؟»

قال : « لا. »

قلت : « ألا تعلم المكان الذى ذهبت إليه ؟ »

قال : « لا . » . قلت : « ومِمَّ تخاف عليها ؟ »

قال : « لا أخاف شيئًا سوى أنى أعلم أنها امرأة غيور حمقاء ، فلعل بعض الناس حاول العبث بها فى طريقها ، فشرست عليه ، فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة . »

وكنا قد وصلنا إلى المخفر ، فاقتادنا الجندى إلى قاعة المأمور ، فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندى أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له : « يسوءنى أن أقول لك يا سيدى إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة فى مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ، فى حال غير صالحة ؛ فاقتادوهما إلى المخفر

(١) زوّر الكلام فى نفسه : هيّأه

فزعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة فى أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكرامًا لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهى امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما.»

وكان الجندى قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا ، ثم سقط فى مكانه مغشيًا عليه . فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى فى مَرْكَبَة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهرًا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح ، فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلىَّ بأمره فلبثت بجانبه أرثى لحاله وأنتظر قضاء الله فيه ، حتى رأيته يتحرك فى مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآنى ، فلبث شاخصًا إلىَّ هُنَيْهة كأنما يحاول أن يقول لى شيئًا فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له :

« هل من حاجة يا سيدى ؟ »

فأجاب بصوت ضعيف خافت : « حاجتى أن لا يدخل علىَّ من الناس أحد . »

قلت : « لن يدخل عليك إلا من تريد . »

فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان[1] بالدموع ، فقلت :

« ما بكاؤك يا سيدى ؟ »

قال : « أتعلم أين زوجتى الآن ؟ »

قلت : « وماذا تريد منها ؟ »

(١) مُخْضَل : مُبْتَل .

قال : « لا شيء سوى أن أقول لها إنى قد عفوت عنها . »

قلت : « إنها فى بيت أبيها . »

قال : « وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها ، فقد كانوا قبل أن يتصلوا بى شرفاء أمجادًا ، فألبستهم مذ عرفونى ثوبًا من العار لا تبلوه الأيام .

« من لى بمن يبلغهم عنى جميعًا أننى مريض مشرف ، وأننى أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأننى أضرع إليهم أن يصفحوا عنى ويغتفروا زلتى ، قبل أن يسبق إلىَّ أجلى ؟

« لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها (١) أن أصون عرضها صيانتى لحياتى ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسى ، فحنثت فى يمينى ، فهل يغفر لى ذنبى فيغفر لى الله بغفرانه ؟

« نعم إنها قتلتنى ! ولكننى أنا الذى وضعت فى يدها الخنجر الذى أغمدته فى صدرى فلا يسألها أحد عن ذنبى . البيت بيتى ، والزوجة زوجتى ، والصديق صديقى ، وأنا الذى فتحت باب بيتى لصديقى إلى زوجتى ، فلم يذنب إلىَّ أحد سواى . »

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا ، حتى لبست وجهه ، فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

« آه ما أشد الظلام أمام عينى ! وما أضيق الدنيا فى وجهى ! فى هذه الغرفة ، على هذا المقعد ، تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملأ نفسى غبطة وسرورًا ، وأحمد الله على أن رزقنى بصديق وفىٍّ يؤنس

(١) اهتدى الرجل امرأته : جمعها إليه وضمها.

زوجتى فى وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقى فى غيبتى ، فقولوا للناس جميعًا : إن ذلك الرجل الذى كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم ، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبى إلى الغاية التى لا غاية وراءها . والهفًا على أم لم تلدنى وأب عاقر لا نصيب له فى البنين (١) !

« لعل الناس كانوا يعلمون من أمرى ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلىَّ ويطيلون النظر فى وجهى ؛ ليروا كيف تتمثل البلاهة فى وجوه البله ، والغباوة فى وجوه الأغبياء !

« ولعل الذين كانوا يتوددون إلىَّ ويتمسحون بى من أصدقائى إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلى ، ولعلهم كانوا يسموننى فيما بينهم قوادًا ويسمون زوجتى مومسًا وبيتى ماخورًا (٢) ، وأنا عند نفسى أشرف الناس وأنبلهم !

« فوارحمتاه لى إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالهفًا على زاوية منفردة فى قبر موحش يطوينى ويطوى عارى معى . »

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه ، فأحس به ففتح عينيه ، فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق

(١) يريد : ليتنى لم أولد .

(٢) الماخور : بيت الدَّعارة والفَساد .

والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح :

« أبعدوه عنى لا أعرفه ، ليس لى أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ! لا ألبس العار فى حياتى وأتركه أثرًا خالدًا ورائى بعد مماتى . »

وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئًا فشيئًا فأنصت إليه واستعبر باكيًا ، وصاح : « أرجعـوه إلىَّ . » فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره فى وجهه ويقول :

« فى سبيل الله يا بنىَّ ما خلف لك أبوك من اليتم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ؛ فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك أحسن فى جريمته التى اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان ! سواء أكنت ولدى يا بنىَّ أم ولد الجريمة فإنى قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندى حيًّا أو ميتًا ! »

ثم احتضنه إليه ، وقبله فى جبينه قبلة لا أعلم هل هى قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها فى رأسه ، وما زال يثقل شيئًا فشيئًا حتى خفتُ عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأسًا وحزنًا . ثم بدأ ينزع نزعًا شديدًا ويئن أنينًا مؤلمًا ، فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره إذا امرأة

مؤتزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة ، وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ، ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها ، وأخذت تقول له :

« لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب فى ولدك ، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عنى يا والد ولدى واسأل الله عندما تقف بين يديه أن تلحقنى بك فلا خير لى فى الحياة من بعدك . »

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمة ، كانت هى آخر عهده بالحياة وقضى .

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقى بيدى وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعى وزفراتى ، فلا يُهوِّن وجدى عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيدًا فنجت بهلاكه .

الـذكرى

« مترجمـة »

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غَرناطة [1] بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابلا [2] على شاطئ الخليج الرومىّ تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا ، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بنى الأحمر . فألقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكى بكاء مُرًّا وينْشِج نشيجًا محزنًا حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصبح شاطئ البحر كأنه مناحة قائمة تتردَّدُ فيها الزفرات،وَيسبِق العبرات ، فإنه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفًا يهتف باسمه ، بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

« نعم ، لك أن تبكى أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء ، فإنك لم

(١) مدينة بالأندلس (أسبانيا) كانت من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، احتلها المرابطون عام ١٠٩٠ ، واتخذها بنو الأحمر عاصمة لهم (٦٣٣ — ٨٩٨ هـ / ١٢٣٥ — ١٤٩٢م) . أهم آثارها العربية « قصر الحمراء » .

(٢) كانت إسبانيا فى أواخر حكم العرب فى الأندلس عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها إلى بعض حتى أصبحت مملكتين قويتين : أراغون وقشتالة ، فتزوج فرديناند ملك أراغون بإيزابيلا ملكة قشتالة سنة ١٤٩٦ ، واتحدا على طرد العرب من غرناطة ، فتم لهما ذلك بعد حروب كثيرة .

تحتفظ به احتفاظ الرجال . إنك ضحكت بالأمس كثيرًا ، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس ؛ فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

« لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضاء ، من حيث لا حول لك فى ذلك ولا حيلة ؛ لهان أمره عليك ، أما وقد أضعته بيدك ، وأسلمته إلى عدوك باختيارك ، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذى لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

« لا يظلم الله عبدًا من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس فى شأن من الشئون شرًّا ولا ضيرًا،ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهُوَّة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

« لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق ؛ فأبيت إلا الملك والسلطان ؛ فنازعت عمك الأمر ، واستعنت عليه بعدوك وعدوه ، فتناول رأسيكما معًا وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قَلِيبٌ [3] من الدم فغرقتما فيه معًا .

« لى فوق هذه الصخرة يا بنى الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذى صرتم إليه ، وأترقب الساعة التى أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ؛ لأنى أعلم أن الملك الذى يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء .

« اتخذ بعضكم بعضًا عدوًّا ؛ وأصبح كل واحد منكم حربًا على

(١) القَلِيبُ : البئر .

صاحبه ؛ فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يتربص بكم الدوائر ويرى أن كلا منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رآكم تتهافتون[١] على أنفسكم ضعفًا ووهنًا فاقتحمكم ، فما هى إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم معًا .

« ستقفون غدًا بين يدى الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألكم عن الإسلام الذى أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرَّغام[٢] ، وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، وعن مدن الإسلام وأمصاره التى اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها فى أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذِمارها ، فلم تحركوا فى شأنها ساكنًا حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غدًا ؟

« ها هى النواقيس ترنُّ فى شرفات المآذن بدل الأذان ، وها هى المساجد تطأ نعال الصليبيين فى تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يفر بدينه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكناف الهضاب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدى شعيرة[٣] من شعائر دينه إلا فى غار كهذا الغار الذى أعيش فيه !

« ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون فى آفاق البلاد ، فقد كان خيرًا لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعًا غلاً واحدًا

(١) تهافتَ الشىء : تساقط وتتابع . (٢) الرَّغام : التراب . (٣) الشَّعيرة : كل ما جعل علامة لعبادة الله .

يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذودًا عن أنفسهم ، وما تفعل الفوضى بأمة ما يفعل بها الاستبداد .

« يسألكم الله يا بنى الأحمر عنى وعن أولادى الذين انتزعتموهم من يدى انتزاعًا أحوج ما كنت إليهم ، وسقتموهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالا لا شرف فيه ولا فَخار حتى ماتوا جميعًا موت الأذلاء الأدنياء. فلا أنتم تركتموهم بجانبى آنس بهم فى وحشتى وألجأ إلى معونتهم فى شيخوختى ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم ووطنهم . فها أنذا عائش من بعدهم وحدى فى هذا الغار الموحش ، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكى عليهم ، وأسأل الله أن يلحقنى بهم فمتى يستجيب الله دعائى ؟ »

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فنالت كلماته من نفس الأمير ما لم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه فصاح :

« ما هذا بشرًا إنما هو صوت العدل الإلهى ينذرنى بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضى ، فليصنع الله بى ما يشاء ، فعدل منه كل ما صنع . »

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقًّا ، فسجل التاريخ فى تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمروها ثمانمائة عام[١] .

بعد مرور أربعة وعشرين عامًا على تلك الحوادث ، لم يبق فى إفريقية حىٌّ من بنى الأحمر إلا فتى فى العشرين من عمره ، اسمه « سعيد » لم ير غرناطة ،

(١) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢هـ / ٧١١ م ـ وتم جلاؤهم عنها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م .

ولا قصر الحمراء ، ولا المرج ، ولا جنة العريف ، ولا نهر شنيل ، ولا عين الدمع ، ولا جبل الثلج[1] ، ولكنه ما زال يحفظ فى ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التى كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ، ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم فى تلك البقاع ، وتلك المراثى المحزنة المؤثرة التى بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثى بنغمة شجية محزنه تستثير عبرته . وتهيج أشجانه ، فلا يزال يبكى وينتحب حتى يشرف على التلف . فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه فى حياته إلا أن يرى غرناطة ساعة من زمان يشفى بها غلة نفسه ، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها ، قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزًا من أهله مريضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه فى القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سَبْتَة إلى شاطئ مَلَقَة ، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكرًا فى ثوب طبيب عربى من أطباء أعشاب يَتَبَقَّل[2] فى جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل . فوقف على هَضْبة من هضاب جبل الثلج ، فرأى الأمواه تنزلق عنه فى هدوء وسكون ، كأنها فوق

---

(١) قصر الحمراء فى غرناطة : مقر ملوك بنى الأحمر ، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر الآثار التاريخية حتى اليوم . ومرج غَرناطة : مشهور بجمال منظره واطراد مياهه ويشبهونه بغوطة دمشق . وجنة العريف : بستان عظيم جدًّا بغرناطة فيه قصور ومبان ومنازه كثيرة . ونهر شنيل : أعظم أنهار غرناطة ، وهو يخترق المدينة من أعلاها إلى أدناها . وعين الدمع : جبل بظاهر غرناطة به منازه وبساتين . وجبل الثلج : بجنوب غرناطة لا يكاد يفارقه الثلج صيفًا وشتاء وتجرى منه ينابيع كثيرة وأنهار صغيرة تسقى ما يحيط بها من الغياض والبساتين .

(٢) تَبَقَّل : خرج لطلب البقل .

سطحه اللامع المتلألئ قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى سفحه فإذا هى حيات بيضاء مذعورة ، تنبعث ههنا وههنا لا هم لها إلا النجاة من يد مطاردها حتى تعثر بجدول ماء فى طريقها فتدغم فيه وتنساب فى أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العقيقية الحمراء وقبابها العالية الشماء ، ومآذنها الذاهبة فى جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع ، وضم إحدى يديه إلى الأخرى ،ووضعهما على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدى صلاته ، ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والحَرَجات[1] يقول :

« هذا ميراث آبائى وأجدادى ، لم يبق لى منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدى الأطلال البوالى والآثار الدوارس .

« هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ؛ وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات .

« هذه قصورهم ، تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها كأنما ترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

« هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى ، تدعو الله أن يعيد إليها بُناتها وحماتها فلا يستجاب لها دعاء .

« فى هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يُقَيِّلون ؛ وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون ، واليوم لا غاد منهم ولا رائح ، ولا سانح تحت هذه السماء ولا بارح ! »

---

(١) الحرجة : غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة .

ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبددها بين يديه تبديدًا فتهافت[1] على نفسه ، وهو يقول :

« هكذا تدول[2] الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة . »

ثم توسد ذراعه واستغرق فى نومه بين وَطاء الأرض وغطاء السماء ، فلم يستفق حتى مضت دولة الليل ، فمشى إلى نهر جار فى سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوى إليه ، فلم يجد فى طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ شنيل ، فمشى على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها .

وإنه لكذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم ، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خمارًا أسود شفافًا ، وأرسلت على صدرها صليبًا ذهبيًّا صغيرًا ، ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته فى مكانه فأدهشها موقفه ، فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها ، فإذا الشمس طالعة حسنًا وبهاء ، وقالت له بلسان عربى تخالطه بعض العجمة :

« أغريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؟ »

قال : « نعم لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذى يأوى إليه الغرباء ، ولم أجد فى طريقى من يَدلنى عليه . »

فسمعت فى صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيته بابتسامة عذبة ، وقالت له : « لا تنس أن تزورنى أيها

---

(١) تهافت : تساقط .   (٢) يدول : ينتقل من حال إلى حال .

الغريب كلما عرضت لك حاجة . » ثم سارت فى طريق كنيستها .

كما أن السماء فى ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضئ صفحتها وتمر بها الشهب فتلمع فى أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوؤها ضوء جميع تلك النَّيرات ؛ كذلك القلب الإنسانى لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء مجتمعة ومفترقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب ، غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غَرناطة منذ الساعة بعين غير العين التى كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى فى وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن ثائره وبردت جوانحه ، وهدأت فى نفسه ثورة الغضب التى كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعه . فكان إذا مر بمسجد من تلك المساجد التى استحالت إلى كنائس ، استطاع أن يقف أمامه هنيهة عله يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه ، وإذا رأى الصليب مُشرفًا على رأس مئذنة ذكر الصليب الذهبى الجميل الذى رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن فى أجواز الفضاء ، ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان فى الساعة التى رآها فيها ، فأنس به وسكنت نفسه إليه .

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا همَّ له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر « شنيل » يقلب نظره فى أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر عله يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه ، وفى وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات عله يراها بينهن فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعًا إلى مقبرة آبائه فى ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعًا غزارًا ، لا يعلم هل هى دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة !

نكب الدهر « فلورندا » منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية « العصابة المقدسة » التى قامت فى وجه الحكومة أعوامًا طوالاً ، تطالبها بالحرية الدينية والشخصية لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيا رجال الحكومة أمرها ، فدسوا لرئيسها من قتله غِيلة[1] تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التى ماتت على أثره حزنًا شديدًا ما كان يفارقها فى جميع غدواتها وروحاتها . فأصبحت وهى لم تسلُخ[2] الثامنة من عمرها تعيش فى قصورها عيش الزاهدات المتبتلات ، فكان لا يراها الرائى إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماضية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها فى مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها فى جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة » .

فإنها لسائرة يومًا بجانب مقبرة بنى الأحمر ، إذ لمحت على البعد فتى عربيًّا مكبًّا على أحد القبور كأنما يقبل صفائحه ويبل تربته بدموعه ، فرثت لحاله ومشت نحوه حتى دانته فأحس بها ، فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له :

« إنك تبكى ملوكك بالأمس أيها الفتى ، فابكهم كثيرًا ؛ فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكى عليهم . »

قال : « أترثين لهم يا سيدتى ؟ »

قالت : « نعم ؛ لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين من العظماء الساقطين . »

(١) الغيلة : الغدر .   (٢) سَلَخَ الشهْرَ : أمضاهُ وصارَ فى آخِره .

قال : « شكرًا لك يا سيدتى فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب فى صدرى مذ وطئت قدماى أرضكم هذه . »

قالت : « هل زرت قصورهم وآثارهم التى تركوها من بعدهم فى هذه الديار ؟ »

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه ، فإذا دمعة تترجج فى مقلتيه وقال : « لا يا سيدتى . لقد حاولت الدنو منها فطردنى عنها الموكلون بأبوابهم ، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم فى هذا العالم كله من هو أولى بها منى . »

قالت : « أتمُتُّ[1] إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟ »

قال : « لا ياسيدتى ، ولكنى عبدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولاءهم ما حييت . »

قالت : « إن رأيتك غدًا فى مثل هذه الساعة فى هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها . »

قال : « لئن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك منى » ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خانه بين صبَابة تُقيمه وتقعده ، وأمل يميته ويحييه .

وفت «فلورندا لصديقها العربى بما وعدته به ، فجاءته فى اليوم الثانى فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته فى اليوم الثالث فأزارته بعضًا آخر منها ، وهكذا ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما شيئًا ؛ فقد كانوا يقولون إذا رأوهما معًا : إن الراهبة

(١) مَتَّ إليه : اتَّصَلَ بِهِ .

الجميلة تحاول أن تهدى الفتى العربى إلى دينها القويم ، حتى استحال العطف الذى كانت تضمره له فى نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف دائمًا طريق الحب أو هو الحب نفسه لا بسًا ثوبًا غير ثوبه . إلا أن أحدًا منهما لم يجرؤ أن يكاشف صاحبه بما أضمره له فى نفسه ، حتى جاء اليوم الذى عزم على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقى بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء ، وطَوْدًا[1] يناطح الجوزاء ، وهضبْة تَشْرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبلا تحْسُرُ[2] عن قمته العيون ، وتضل فى جوانبه الظنون ، وحصنًا تتقاصر عنه يد الأيام ، وتتهافت من حوله السنون والأعوام .

ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير، وقباب تفضى إليها النجوم بالأسرار، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء ، كأنها الرياض الزاهر ، وجدران صقيلة ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرآة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لُجة[3] متلاطمة الأمواج يحبسها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتنغم فى نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مُسْتَعْبِرا
مُعتبِرًا أندب أشتاتا
فقلت:يا حمراء هل رجعَة ؟
قالت:وهل يرجع من ماتا ؟

---

(١) الطَّود : الجبل . (٢) تحسُرُ : تكل وتضعف ، أى لا تستطيع الوصول إلى قمته لعظم ارتفاعه . (٣) لُجّة : ماء كثير .

فلم أزل أبكى على رسمها
هيهات يُغنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضوا
نوادب يندبن أمواتا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صَحنًا مفروشًا ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به فى جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النحاف الطوال ، وتراءت فى جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته فهاجت فى نفسه الذكرى ، وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزنًا ووجدًا .

وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكى أمام « فلورندا » فتركها فى مكانها لاهية عنه بالنظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها ، فكان أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها فما قرأه حتى صاح صيحة شديدة قائلاً : « وا أبتاه !» وسقط مغشيًا عليه ، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عينيه فوجد رأسه فى حجر « فلورندا » ووجد فى عينيها آثار البكاء ، فقالت له :

« لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكاتمنى شيئًا من أسرار نفسك ، والآن عرفت أنك لست عبد بنى الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكنك أحد أمرائهم ، وأنك الساعة فى قصر جدك وأمام حجرة أبيك . فما أسوأ حظكم يا بنى الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين !»

فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره ، فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها :

« فلورندا ، إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذى تدخره لى الأيام غدًا .»

قالت : « وأى شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟ »

فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال : « إننى أستطيع أن أحتمل كل شىء فى الحياة إلا أن أفارقك فراقًا لا لقاء من بعده !»

قالت : « أتحبنى أيها الأمير ؟ »

قال : « نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهاطلة .»

قالت : « وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك ؟»

قال : « نعم لأن طريق الدين فى القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التى أحبها فأحببتك لها ، ثم لا شأن لى بعد ذلك فيما تعتقدين .»

قالت : « وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ »

قال : « و لم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التى نجد فيها السعادة إن ظفرنا بها؟ ومتى كان للسعادة فى هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟»

وكان الليل قد أظلهما ، فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذى اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت « فلورندا » يدها فى يده وقالت له :

« سأحبك كما أحببتنى أيها الأمير ، وسيكون حبى لك بلا أمل كحبك . ولقد فرق الدين بين جسدينا ، فليجمع الحب بين قلبينا .» وتركته وانصرفت .

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيا فى حياتهما الماضية من شقاء وعناء ، فأصبحا فوق أرض غَرناطة وتحت سمائها طائرين جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وتترقرق صفحة

الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير ، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما ، ولا ينفُس عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التى ابتاعاها بكثير من دموعهما وآلامهما، والتى لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسرا كل شئ .

بينا هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما « الدون رودريك » ابن حاكم مدينة غرناطة ، فرآهما فى مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى « فلورندا » قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أيامًا يتحبب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبت أن تصغى إليه ، وقالت له :إننى لا أتزوج ابن قاتل أبى،فانصرف بلوعة لا تزال فانصرف فى نفسه حتى اليوم . فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم فى نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها فى وجهه إلا لأنها كانت قد فتحته من قبل لذلك الفتى العربى الجميل الذى يجالسها ، فذهب إلى قصرها فى اليوم الثانى ليفضى إليها بما وقع فى نفسه ، فأبت أن تقابله ، فخرج غاضبًا يحدث نفسه بأفظع أنواع الانتقام .

وما هى إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبى عبد الله ، سليل بنى الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسى مجدها وعظمتها ، وبناة قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهانًا إلى محكمة التفتيش[1] متهمًا بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهى عندهم أفظع الجرائم وأهولها .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأنكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له :

---

(١) أنشئت فى إسبانيا عام ١٤٧٨ بقصد استئصال البدع ، واستخدمت وسائل العنف البالغ فى عمليات التحقيق والتعذيب والإعدام .

« لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح !» فطار الغضب فى دماغه ، وصرخ صرخة دوَّت بها أرجاء القاعة وقال :

« فى أى كتاب من كتبكم ، وفى أى عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم ؟

« من أى عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التى تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقًا ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر ؟

« أين العهد الذى اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحرارًا فى عقائدنا ومذاهبنا ، وأن لا تؤذونا فى عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا فى شعيرة من شعائر ديننا ؟

« أهذا الذى تصنعون اليوم ، والذى صنعتم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعى للذمم ؟!

« نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ؛ فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالى بعهد ولا وفاء .

« إن العهود التى تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هى سيف قاطع فى يد الأولين ، وغِلٌّ ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عثرة البلهاء ولا أقرَّ عيون الأغبياء !

« أنتم أقوياء ونحن ضعفاء ، فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة ؛ فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذى خولتكم إياه قوتكم .

« اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون

فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء ؛ فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء !»

ثم حاول الاستمرار فى حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة الموت التى هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقًا ، فسيق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساء ، وما جرد الجلاد سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هى إلا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذى ليس له مثيل .

يرى المار اليوم بجانب مقبرة بنى الأحمر فى ظاهر غرناطة قبرًا جميلاً مزخرفًا ، هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافى ، قد نحتت فى سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر ، فيهوى إليها الطير فى أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بنى الأحمر »

« من صديقته الوفية بعهده حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

الهاوية

موضوعة

ما أكثر أيامَ الحياة وما أقلَّها ! ؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التى عشتها فى هذا العالم إلا عامًا واحدًا ، مر بى كما يمر النجم الدَّهرى فى سماء الدنيا ليلة واحدة ، ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتى أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التى ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزراع إلى ماشيته ، فأعوزنى ذلك حتى عرفت « فلانًا » منذ ثمانية عشر عامًا فعرفت امرءًا ما شئت أن أرى خَلَّة من خلال الخير والمعروف فى ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنسانى فى وجه إنسان إلا أضاءت لى فى وجهه ؛ فجلَّت مكانته عندى ونزل من نفسى منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بينى وبينه لا يكدرها علينا مكدر .

حتى عرض إلَّى من حوادث الدهر ما أزعجنى من مستقرى ؛ فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسى ، غير آسف على شىء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عنى كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزنًا شديدًا وذهبت بى الظنون فى شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب فى صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بى عن ذلك همٌّ كان يقعدنى عن كل شأن حتى شأن نفسى . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد

أعوام ، فكان أول همى يوم هبطت أرضها أن أراه ، فذهبت إلى منزله فى الساعة الأولى من الليل ، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبى حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة فى ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشرًا وسرورًا ، ثم زرته اليوم فخيل إلَّى أننى أمام مقبرة موحشة ساكنة ، لا يهتف فيها صوت ، ولا يتراءى فى جوانبها شبح ، ولا يلمع فى أرجائها مصباح ؛ فظننت أنى أخطأت المنزل الذى أريده ، أو أننى بين يدى منزل مهجور . حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت فى بعض النوافذ نورًا ضعيفًا فمشيت إلى الباب فطرقته ، فلم يجبنى أحد فطرقته أخرى ، فلمحت من خَصاصه[1] نورًا مقبلاً ، ثم لم يلبث أن انفرج لى عن وجه غلام صغير فى أسمال بالية يحمل فى يده مصباحًا ضئيلاً ، فتأملته على ضوء المصباح فرأيت فى وجهه صورة أبيه ، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذى كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إلَّى بالدخول ومشى أمامى بمصباحه ، حتى وصل بى إلى قاعة شعثاء مُغْبرة بالية المقاعد والأستار . ولولا نقوش لاحت لى فى بعض جدرانها كباقى الوشْم فى ظاهر اليد — ما عرفت أنها القاعة التى قضينا فيها ليالى السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً .

ثم جرى بينى وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركنى ومضى ، وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لى إن والدته تريد أن تحدثنى حديثًا يتعلق بأبيه ، فخفق قلبى خفقة الرعب والخوف ، وأحسست بشرٍّ لا أعرف مأتاه[2] .

---

(١) الخَصاصُ جَمْعُ خَصاصَة ، وهى كل فُرْجَة أو خَرْق فى باب أو غيره .
(٢) المأتى : الوجه الذى يأتى منه الشىء .

ثم التفتُّ فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب ، فحيتنى فحييتها ، ثم قالت لى : « هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟»

قلت : « لا ؛ فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام .»

قالت : « ليتك لم تفارقه ؛ فقد كنت عصمته التى يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى، كما تعلمه ، غَريرًا ساذَجًا ، فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان ، حتى سقط فيه ، فسقطنا جميعًا فى هذا الشقاء الذى تراه .»

قلت : « وأى شر تريدين يا سيدتى ؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟»

قالت : « سأقص عليك كل شئ فاستمع لما أقول :

« ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه ، وعلقت حباله بحباله ، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه ، حيث كان ، ولا تزال نعالهم خافقة وراءه فى غدواته وروحاته ، فاستحال من ذلك اليوم أمره ، وتنكرت صورة أخلاقه ، وأصبح منقطعًا عن أهله وأولاده ، لا يراهم إلا الفَيْنة بعد الفينة(1) ، وعن منزله لا يزوره إلا فى أخريات الليالى . ولقد اغتبطت فى مبدأ الأمر بتلك الحُظْوة التى نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التى نالها من نفسه ، ورجوت له من ورائها خيرًا كثيرًا ؛ مغتفرة فى سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عنى وإغفاله أمرى وأمر أولاده ،

(1) الفَيْنة : الساعة والحين .

حتى عاد فى ليلة من الليالى شاكيًا متألمًا يكابد غُصصًا شديدة وآلامًا جسامًا ، فدنوت منه ، فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شىء.

« علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسه ، فى الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجى الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين . وأنه ما كان يتخذه صديقًا كما زعم ، بل نديمًا على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ؛ رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التى كان يحياها سعيدًا بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئًا .

« ثم علمت بعد ذلك أن اليد التى ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ؛ فلم أعجب لذلك ؛ لأنى أعلم أن طريق الشر واحدة ، فمن وقف على رأسها لا بُدَّ له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها . فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذى كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ، ويستحى أن يجلس فى مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيرًا مقامرًا مُستَهْتَرًا لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقى عارًا ولا مأثمًا .

« وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم ، الذى كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذَّرُّ ، وبزوجه أن يتجهم(1) لها وجه السماء ، **أبًا قاسيًا وزوجًا** سليطًا ، يضرب أولاده كلما دنوا منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها .

وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالى أن يعود إلى المنزل فى بعض الليالى فى جمع من عُشرائه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التى أنام فيها أنا وأولادى فيجلسون فى بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون

(1) تجهّم له : استقبله بوجه كريه .

ويقصفون[١] حتى يذهب بعقولهم الشراب ؛ فيهتاجوا ، ويرقصوا ، ويملأوا الجو صراخًا وهُتافًا ، ثم يتعادوا[٢] بعضهم وراء بعض فى الأبهاء[٣] والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتى . وربما حدق بعضهم فى وجهى أو حاول نزع خمارى على مرأى من زوجى ومسمع فلا يقول شيئًا ، ولا يستنكر أمرًا ؛ فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان . وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتى ؛ فأقضى عندهم بقية الليل .»

وهنا تغيرت نغْمة صوتها ، فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكى ؛ فبكيت بينى وبين نفسى لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

« وما هى إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان فى يده من المال ، فكان لا بد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين ، فرهن ، فعجز عن الوفاء ، فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذى نسكنه ، ولم يبق فى يده غير راتبه الشهرى الصغير ، بل لم يبق فى يده شيء حتى راتبه ؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين !

« هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بى وبأولادى ، فقد مر على آخر حِلْية بعتها من حُلاى : عام كامل ، وها هى حوانيت المرابين والمسترهنين مَلأى بملابسى، وأدوات بيتى وأثاثه، ولولا رجل من ذوى قرباى رقيق الحال[٤]

(١) قصَف الرجل : أقام فى أكل وشراب ولهو .

(٢) يتعادوا : يتباروا فى العَدْوِ ، أى الجرى .

(٣) الأبهاء : جمع بهو ، وهو المكان المُخصَّصُ لاستقبال الضُّيوف .

(٤) رقة الحال كناية عن الفقر .

يعود علىَّ من حين إلى حين بالنَّزْر القليل مما يستلُّه من أشداق عياله ، لهلكت وهلك أولادى جوعًا .

« فلعلك تستطيع يا سيدى أن تكون عونًا لى على هذا الرجل المسكين ، فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له فى ذلك الرأى الصالح ، وأحسب أنك تقدر منه — للمنزلة التى تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعًا ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يدك فيه حتى الموت .»

ثم حيتنى ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التى أستطيع أن أرى أباه فيها فى المنزل ، فقال : إنك تراه فى الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأنى ، وقد أضمرت بين جنبى لوعة ما زالت تقيمنى وتقعدنى وتذود عن عينى سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضى .

ثم عدت فى صباح اليوم الثانى ؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذى كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمرى معه بعد ذلك ، وفى نفسى من القلق والاضطراب ما يكون فى نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم .

الآن عرفت أن الوجوه مرايا[١] النفوس تضئ بضيائها وتظلم بظلامها ؛ فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستنى الأيام صورته ، ولم يبق فى ذاكرتى منها إلا ذلك الضياء اللامع ؛ ضياء الفضيلة والشرف الذى كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس فى صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عينى تلك الغِلالة البيضاء التى كنت أعرفها ، خيل إلىَّ أننى أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذى كنت أعرفه من قبل .

(١) المرايا : جمع مرآة .

لم أر أمامى ذلك الفتى الجميل الوضّاح ، الذى كان كل منبت شعرة فى وجهه فمًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقيًّا منكوبًا ، قد لبس الهرمَ قبل أوانه ، وأوفى على الستين قبل أن يسلُخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، واستشرف(١) عاتقاه ، وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقى الأحدب ، فكان أول ما قلت له :

« لقد تغير فيك كل شىء يا صديقى حتى صورتك! »

وكأنما ألمَّ بما فى نفسى ، وعرف أنى قد علمت من أمره كل شىء، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئًا ، فدنوت منه حتى وضعت يدى على عاتقه ، وقلت له : « والله ما أدرى ماذا أقول لك . أأعظك ، وقد كنت واعظى بالأمس ، ونجم هداى الذى أستنير به فى ظلمات حياتى ؟! أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك فى نفسك ، وفى أهلك ؟ ولا أعرف شيئًا أنت تجهله ، ولا تصل يدى إلى عِبْرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التى لا عضد لها فى الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذى طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء .

« إن هذه الحياة التى تحياها يا سيدى ، إنما يلجأ إليها الهَمَلُ(٢) العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ؛ ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً، حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم،وما أنت بواحد

(١) استشرف : ارتفع .   (٢) الهَمَلُ : المُهْمَلُ المتروك بلا رعاية .

منهم .

« إنك تمشى يا سيدى فى طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم(١) بها ، فما رغبتك فى الخروج منها خروج اليائس المنتحر ! عذرتك لو أن ما ربحت فى حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنتَ غنيًّا فأصبحت فقيرًا ، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا ، وشريفًا فأصبحت وضيعًا ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد ، فقد خَلَت رقعة الأرض من الأشقياء .

« إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه فى جَرْعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذى يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

« حسبنا يا صديقى من الشقاء فى هذه الحياة ما يأتينا به القدر ، فلا نضم إليه شقاء جديدًا نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ! فهات يدك وعاهدنى على أن تكون لى منذ اليوم كما كنت لى بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن أولاء قد التقينا ؛ فلنعش فى ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا . »

ثم مددت يدى إليه ، فراعنى أنه لم يحرك يده ؛ فقلت له : « مالك لا تمد يدك إلى ؟ »

فاستعبر باكيًا وقال : « لأننى لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حانثًا . »

قلت : « وما يمنعك من الوفاء ؟ »

(١) تبرم الأمر : سئِمَه وضَجِرَ منه .

قال : « يمنعنى منه أننى رجل شقىٌّ ، لا حظَّ لى فى سعادة السعداء . »

قلت : « قد استطعت أن تكون شقيًّا ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيدًا ؟ »

قال : « لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمى عن حافة الهوة فلا قدرة لى على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لى أن أشربها حتى ثُمالتها ، ولا شىء من الأشياء يستطيع أن يقف فى سبيلى إلا شىء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، ومادمت قد فعلت فلا حيلة لى فيما قضى الله . »

قلت : « ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين . »

قال : « إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوبًا على أمرى ، لا إرادة لى ولا اختيار ، فدعنى يا صديقى والقضاء يصنع بى ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم ، إن كنت لا ترى بأسًا فى البكاء على الساقطين المذنبين ! »

ثم انفجر باكيًا بصوت عال وتركنى مكانى دون أن يحيينى بكلمة ، وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأنى وبين جنبى من الهم والكمد ما الله به عليم .

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمنًا طويلاً ، فأقصاه عن مجلسه استقلالاً له ، ثم عزله عن وظيفته استنكارًا لعمله ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته

وولداه إلى غرفة حقيرة فى بيت قديم فى زقاق مهجور ، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهبًا إلى الحانة أو عائدًا منها ، فإن رأيته ذاهبًا زوَّيت وجهى عنه ، أو عائدًا دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ، ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ، حتى أصبح من يراه ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلمًا من الأحلام السارية ، يمشى فى طريقه مِشية الذاهل المشدوه ، لا يكاد يشعر بشىء مما حوله ، ولا يتقى ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حينًا بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه ، كأنما يفتش عن شىء أضاعه وليس فى يده شىء يضيع ، أو يقلب نظره فى أثوابه ، وما فى أثوابه غير الرقاع والخرق ! وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدوًّا بغيضًا وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعًا لينًا غير آبه ولا محتفل ، كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سَوْرتها فى رأسه ، انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت ، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها ، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما ، فلم تر لها بدًّا من أن تركب تلك السبيل التى يركبها كل مضطر عديم ؛ فأرسلتهما خادمين فى بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها . فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا فى الليلة التى تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة فى غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز ، تختلف إليها من حين

إلى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ، ذكرت تلك الأيام السعيدة التى كانت تتقلب فيها فى أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة ، بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسنًا وبهاء . ثم تذكر كيف أصبح السيد مَسُودًا ، والمخدوم خادمًا ، والعزيز الكريم ذليلاً مهينًا ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤى المنظوم الذى كان حلية بديعة فى جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء ، تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام ؛ فتبكى بكاء الواله فى إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد !

على أنها ما أضمرت قط فى قلبها حقدًا لذلك الإنسان الذى كان سببًا فى شقائها وشقاء ولديها ، ولا حدثتها نفسها يومًا من الأيام بمغاضبته أو هجرانه ؛ لأنها امرأة شريفة، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب. بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير، فترحمه وتعطف عليه، وتسهر بجانبه إن كان مريضًا ، وتأسو جراحه إن عاد جريحًا . وربما طرده الخمار فى بعض لياليه من حانه ، حينما لا يجد معه ثمن الشراب ؛ فيعود إلى بيته ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب طلبًا شديدًا ؛ فلا تجد بدًا من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه ؛ رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال ، حتى أضاف إليها ثقلاً جديدًا ، فقد شعرت فى يوم من أيامها بنسمة تتحرك فى أحشائها ؛ فعلمت أنها حامل ، وأنها ستأتى إلى دار الشقاء بشقى جديد ، فهتفت صارخة : « رحمتك اللهم ، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة ! » وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة ، حتى جاءت ساعة وضعها ، فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز ،

فأعانها الله على أمرها فوضعت . ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضًا شديدًا ، فلم تجد طبيبًا يتصدق عليها بعلاجها ؛ لأن البلد الذى لا يستحى أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذى قتله ، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويدًا رويدًا حتى أدركتها رحمة الله ، فوافاها أجلها فى ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

فى هذه الساعة دخل الرجل ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتى له منه بما يريد ، فدار بعينيه فى أنحاء الغرفة حتى رآها ممدة على حصيرها ، ورأى ابنتها تبكى بجانبها ، فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيدًا عنها ، وأخذ يحركها تحريكًا شديدًا فلم يشعر بحركة ، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى فى أعضائه حتى أصابت قلبه ، فبدأ صوابه يعود إليه شيئًا فشيئًا ، فأكبَّ عليها يحدق فى وجهها تحديقًا شديدًا ، ويزحف نحوها رويدًا رويدًا حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين ، فتراجع خوفًا وذعرًا فوطئ فى تراجعه صدر ابنته فأنَّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : « واشقاءاه ! واشقاءاه !! »

وخرج هائمًا على وجهه يعدو فى الطرق ويضرب رأسه بالعُمُد والجدران ، ويدفع كل ما يجد فى طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : « ابنتى ! زوجتى ! هلموا إلىَّ ! أدركونى ! » حتى أعيا فسقط على الأرض ، وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح ، والناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا فى وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التى استفاق فيها من ذهوله الطويل سببًا فى ضياع ما بقى من عقله .

وما هى إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيدًا مغلولا فى قاعة من قاعات البيمارستان ، فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء !

❊ ❊ ❊

الجـــزاء

« مترجمـــة »

جلست على ضفة البحيرة تملأ جرَّتها ، وكان الماء ساكنًا هادئًا كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة ،ولا شيء أحب إلى المرأة من المرآة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها ، فلمحت فى صفحتها وجهًا أبيض رائقًا ينظر إليها نظرًا عذبًا فاترًا ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذى افتتن به خطيبها القروى الجميل .

أنست بهذا المنظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها فى الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا به خيال رجل فذعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فملأت جرتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : « هل تأذنين لى يا سيدتى أن أعينك على حمل جرتك ؟» فالتفتت فإذا فتى حضرى غريب حسن الصورة والبِزَّة[1] لا تعرفه ، ولاتعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فرابها أمره واتقد وجهها حياء وخجلاً ، و لم تقل شيئًا ، واستقلت[2] جرتها ومضت فى سبيلها .

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت فى بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان فى مغرس واحد ، فرضعت معه وليدةً ، ولعبت معه طفلةً ، وأحبته

---

(١) البِزَّة : الهيئة . (٢) استَقَلَّ الشىء : حَمَلَهُ وَرَفَعَهُ .

فتاة . ومرت بهما فى جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرة ، والجياد والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والغلائل المرصعة ؛ لأنهما كانا قرويين فقيرين .

بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلألؤ السماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة ، على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة ، وأغانى الرعاة ، وضوضاء السائمة فى غدوها ورواحها ، وبكاء النواعير[1] فى مسائها وصباحها ، ومن الحب الطاهر الشريف الذى يشرق على القلوب الحزينة فيسعدها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذى هو العزاء الوحيد عن كل فائت فى هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة .

لا تعرف المرأة لها وجودًا إلا فى عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ؛ لأصبح الوجود والعدم فى نظرها سواء . ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت فى كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت فى زاوية من زوايا الأرض أنة وجد ؛ لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملأ قلبها غبطة وسرورًا .

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوة مختالة ، لا لأن حبًّا جديدًا حلَّ فى قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها

(1) النواعير : جمع ناعورة ، وهى « الساقية » ، أى الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر .

بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت فى طريقها برهانًا جديدًا على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فترى ذلك السيد الحضرى فى غدوها أو رواحها يحييها أو يبتسم لها ، أو يسائلها عن طريق ، أو يستسقيها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقى فى أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع فى يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة فى ظل صخرة منفردة ، فكانت هذه اللحظة آخر عهدها بحياتها القديمة ، وأول عهدها بحياتها الجديدة !

هبط المركيز جوستاف روستان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها ، وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فيقضى فى قصره الجميل الذى بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته « نيس » . حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة فى بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها ، وما زال يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره ، وعلى جيدها ومعصميها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياة الحضرية فى أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيها الأمانى الكبار فى حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتى تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

استيقظ الفتى جلبرت فى الساعة التى يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقالها ، ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها فى سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشئون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتًا طويلاً فلم تعد .

فرابه الأمر وأعاد البقرة إلى مُعْتَلَفِها ، وخرج يفتش عنها فى كل مكان ،

يسائل عنها الناس جميعًا غاديهم ورائحهم ، فلم يجد من يَدله عليها حتى أظله الليل ؛ فعاد حزينًا مكتئبًا لا يرى أن أحدًا على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابعة فى كِسر البيت مطرقة برأسها تفلى التراب بعود فى يدها ، فدنا منها ، فرفعت رأسها إليه وقالت له :

« أين كنت يا جلبرت ؟»

قال : « فتشت عن سوزان فى كل مكان فلم أجدها .»

فألقت عليه نظرة مملوءة حزنًا ودموعًا ، وقالت : « خير لك يا بنى ألا تنتظرها بعد اليوم . »

فانتفض انتفاضة شديدة ، وقال : « لماذا ؟»

قالت : « قد دخلت علىَّ الساعة جارتنا فلانة ، فحدثتنى أنها ما زالت تراها منذ ليالى تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضرى غريب عن هذه المَدَرَة ، أحسبه المركيز « جوستاف روسنان » صاحب هـذه المزارع التى تلينا والقصر الأحمر الذى يليها ، وقالت لى إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشهب يعدو بها فى طريق القصر الأحمر ، ولا بد أنها فرت معه .»

فصرخ جلبرت صرخة جادت لها نفسه أو كادت ، وخر فى مكانه صعقًا . فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله ، تبكى عليه مرة ، وتمسح جبينه بالماء أخرى ، حتى استفاق فى مطلع الفجر ، فنظر حوله نظرة حائرة ، فرأى أمه مكبة على وجهها تبكى وتنتحب ، فذكر كل ذلك فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها ، وسألها : « ما بكاؤك يا أماه ؟»

قالت : « أبكى عليك يا بنىَّ وعليها . »

قال : « إن كنت باكية فابك على غيرى ، أما أنا فلست بحزين ، ولا باك ،

فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبنى ، وقد استحال قلبى الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شىء ، فلا رجعة لى إليها بعد اليوم ! » ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

لقد كذبت المسكينَ نفسُه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ، ولكنها الغضبة التى يغضبها المحب المهجور ، تخيل إليه أنه قد نفض يده من المحب أشد ما يكون به عالقًا .

فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته فى مرعاها ، حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعه قليلاً قليلاً ، ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات ؛ فتنير ظلامها ، وتجلو صفحتها ، وتترقرق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتلألئة بين يدى هذا الكوكب المنير . ودار بنظره فى الفضاء من مشرقه إلى مغربه ، فلمح فى الأفق الغربى بارقًا يخطف البصر بلألائه ، فخيل إليه أن المغرب قد أطلع فى أفقه شمسًا كتلك التى أطلعها المشرق حتى تبينه ، فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابثه أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماعًا شديدًا ، فاسترد بصره إليه سريعًا ووضع يده على يسرى أضالعه ، كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ؛ لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجى الأصفر إنما يلوح فى برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبته فيما حدثته ، وأن تلك البارقة التى كانت تضئ ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضمًا ، وتمشى فى نفسه مشى الموت فى الحياة ، فأطلق لعبرته سبيلها . وأنشأ يئن أنينًا محزنًا تردده الرياح فى جوها ، والأمواج فى بحرها ، والأعشاب فى

مغارسها ، والسائمة فى مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعـاة وضوضاء السائمة ، فكفكف عبراته ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومـه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم ، فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مذاهبه ، حتى نال منه ما لم ينل كر الغداة ومر العشى ، فأصبح من يراه فى طريقه يرى رجلاً بائسًا منكوبًا مشرد العقل ، مشترك اللب ، مذهوبًا به كل مذهب ، يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحَرَجات ، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحش أنس العشير بعشيره ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الظباء واليعافير[1] ، ثم يصدر إذا صدرت معها .

وربما ترامى به السير أحيانًا إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر ، فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعر ذعرًا شديدًا وصاح صيحة عظيمة ، وانكفأ راجعًا إلى قريته لا يلوى على شىء ، وكثيرًا ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تفتش عنه فى كل مكان ، حتى تراه ملقى بين الأحجار ، على ضفة نهر ، أو فى سفح جبل ، فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ، ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشعة ، تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أدراجها !

مضى الليل إلا أقله ، وسوازن جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلتفت إلى سرير ابنتها مرة وتقلب وجهها فى السماء أخرى ، وكان القمر فى ليلة تِمِّه ، فظلت تناجيه وتقول :

(١) اليعافيرُ : جمع يَعْفور ، وهو الظَّبى بلون التراب .

« أيها القمر السارى فى كبد السماء ، ها أنذا أراك فى ليلة تِمِّك وحدى للمرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إلىَّ خطيبى « جوستاف » فينظر إليك معى كما يفعل من قبل ؟

« لقد كنت لى أيها الكوكب المنير نعم المعين فى ليالىّ الموحشة على همومى وأحزانى ، فهل تستطيع أن تحدثنى عن « جوستاف » أين مكانه ومتى يعود ؟ وهل نلتقى قريبًا فتتم بذلك يدك عندى ؟

« حدثنى عنه .. هل يذكرنى كما أذكره ؟! وهل يحفظ عهدى كما أحفظ عهده ؟! وهل يجلس إليك حينًا فيسائلك عنى كما أسائلك عنه ؟ فإن فعل ، فقل له : إن ابنته جميلة جدًا جمال الابتسامة الحائرة فى فم الحسناء ، وبيضاء بياض القطرة الصافية فى الزنبقة الناصعة تحت الأشعة الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتف باسم غير اسمه ، ولا تبتسم لرسم غير رسمه ، وإنه إن رآها أغنته رؤيتها عن المرآة المجلوة ؛ لأنه يرى صورته فى وجهها كما تتشابه الدميتان المصبوبتان فى قالَب واحد . »

ولم تزل تناجى القمر بمثل هذا النجاء حتى رأته ينحدر إلى مغربه ، فودعته وداعًا جميلاً ، وقالت : « إلى الغد يا صديقى العزيز . » ثم قامت إلى سرير ابنتها ، فحنت عليها برفق وقبَّلتها فى جبينها قبلة المساء ، وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عَبِثت بجفنها السنة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانيها وآمالها ، فرأت كأن « جوستاف » قد عاد من سفره فاستقبلته هى وابنتها على باب القصر ، فنزل من مركبته وضمهما معًا إلى صدره ضمًا شديدًا ، وظل يقبلهما ويبكى فرحًا وسرورًا .

فإنها لمستغرقة فى حلمها هذا ، إذ شعرت بيد تحركها فانتبهت ، فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة متطلقة ...

« بشراك يا سيدتى فقد حضر سيدى . »

فاستُطيرت فرحًا وسرورًا ، وقالت : « أحمدك اللهم فقد صدقت أحلامى . » وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ، ثم دخلت عليه فى غرفته باسمة متهللة تحمل ابنتها على يدها ، فرأته واقفًا فى وسط الغرفة متكئًا على كرسى بين يديه ، فهرعت إليه . ولكنها ما دنت منه ، حتى تراجعت حائرة مدهوشة ؛ لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، لا بل هو بعينه ، ولكنها رأت وجهًا صامتًا متحجرًا لا تلمع فيه بارقة ابتسام ، ولا تجرى فيه نظرة بشاشة فأنكرته . إلا أنها تماسكت قليلاً ومدت إليه يدها تحييه ، فمد إليها يده بتثاقل وفتور ، كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ، ولم يلق على وجه الطفلة — وكانت تبتسم إليه وتمد نحوه ذراعيها — نظرة واحدة ، وكانت أول كلمة قالها لها :

« أباقية أنت فى القصر حتى اليوم ؟! »

فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد ، وقالت له :

« وأين كنت تريد أن ترانى يا سيدى ؟ »

قال : « فى هذا القصر ، كما تركتك ، ولكننى أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم . »

قالت : « لماذا ؟ »

قال : « لأن زوجتى قادمة إليه اليوم ، وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعجه وجودها . »

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث فى عروقها من الدم قد تراجع كله دفعة واحدة إلى قلبها ، فأصبح وحده الواجب(١) الخفّاق من دون أعضائها

(١) وَجَبَ القلب : خفق .

وأوصالها جميعًا . ولكن المصيبة إذا عظمت جلت عن البكاء والأنين ، فلم تصحْ ولم تضطرب ، بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى ابنتها وقالت له :

« وما ترى فى ابنتك هذه ؟ »

قال : « ليس لى ابنة أيتها السيدة ولا ولد لى ؛ لأنى لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام ! فخذى ابنتك معك ، وعيشى معها حيث تشائين ، وقد تركت لك هذا الكيس على المنضدة ، فخذيه واستعينى به على عيشك ، وتركها ومضى . »

لم تلق على المنضدة نظرة واحدة ، ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها ، وهنالك انفجرت باكية ، وقالت : « وا سوأتاه ! إنه يعطينى ثمن عرضى . » وسقطت مغشيًا عليها .

فلم تستفق حتى أظلها الليل ، ففتحت عينيها فإذا ابنتها تبكى بين ذراعى الخادمة ، وإذا الخادمة تبكى لبكائها ، فضمتها إلى صدرها ساعة ، ثم قامت إلى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التى دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام ، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً ، فخلعت أثوابها ولبسته ، ولم تبق فى معصميها ولا فى جيدها لؤلؤةً ولا ماسةً إلا ألقتْ بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح(١) فى مشيتها كأنما تمشى على رملة مَيْثاء(٢) .

وما جاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذى كانت واقفة فيه فى حلمها هى وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها ، حتى لمحت على البعد مَرْكبة

(١) ترنَّح : تمايَل من السُّكْر وغيره . (٢) الميثاء : الليِّنة .

فخمة مقبلة على القصر تحمل المركيز وامرأة بجانبه ! فأغمضت عينيها وتسللت تحت جدار القصر ، ومضت فى سبيلها .

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبيها فى تلك الساعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصر التى كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم فى نفسها أنها أحب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، واستحالت فى ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلاً عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها ؛ فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا إليها كثيرًا وأحباها حبًّا جمًّا فأساءت إليهما وغدرت بهما ، فقد سُدَّت دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها فى الأرض ، ولا فى السماء !

ذلك ما كانت تحدث نفسها به ، وهى سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهبًا ولا مضطربًا ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى ، فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجارى على مقربة من القصر ، فأضجعتها فوق عشبها ، وأسبلت عليها رداءها ، وجلست بجانبها تفكر فى مصيرها .

فإنها لجالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شىء فيه إلا ضوء القمر المنبعث فى أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرقة على صفحات الماء ، إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفًا يهتف باسمها بصوت ضعيف ، فالتفتت حيث سمعت الصوت فإذا شبح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتاعت وفزعت ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة . فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويدًا رويدًا حتى دانته ، فإذا هو إنسان فى زى المساكين مُستَلقٍ على ظهره

شاخص ببصره إلى جدار القصر . فذهبت بنظرها حيث يذهب ، فإذا عينا عالقة بنافذة غرفتها التى كانت تجلس إليها كل ليلة ، عجبت لذلك كل العجب ، وخفق قلبها خفقًا متداركًا ورأته يضم إلى صدره هنة بيضاء أشبه بالرقعة ضمًّا شديدًا ، فأكبت عليه لتتبينه ، وترى ما يضم إلى صدره ، فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو « جلبرت » يجود بنفسه ، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذبين فى أعماق القبور :

« الوداع يا سوزان ! الوداع يا سوزان ! »

ففهمت كل شىء، فصرخت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت :

« آه ! لقد قتلتك يا ابن عمى . »

ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها ، وتقول : « ها أنذا يا « جلبرت » جاثية تحت قدميك ، فارحمنى واغفر لى ذنبى ، فقد أصبحت امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة منى . »

وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلاً ، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمعة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة ، وقُضى :

ولما دنا منى السياق[1] تعرضت
إلىّ ودونى من تَعَرُّضها شغل

أتت وحياض الموت بينى وبينها
وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

جثت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة ، قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيقها الذى أحبه حبًّا لم يحبه أحد من قبله أحدًا حتى مات

---
(١) السِّياق : نزع الروح .

حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها ، وأنها تركتها على تلك الربوة نائمة وحدها فعادت إليها مسرعة ، وقد قررت فى نفسها أمرًا .

« لا أعرف أحدًا من الناس أوصيه بك يا بنيتى ؛ لأن أباك أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذى كان يحبنى فى هذا العالم ذهب لسبيله ، ولكنى أعلم أن لهذا الكون إلهًا رحيمًا يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة الحزن فى أفئدة المحزونين ولاعج الشقاء بين جوانح الأشقياء ، فأنا أكل أمرك إليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء .

« لا أستطيع أن أعيش لك يا بنيتى ، فإن أحدًا من الناس لا يغتفر لى الذنب الذى أذنبته ، حتى الذى أغرانى به وشاركنى فيه ؛ فأنا ذاهبة إلى ذلك العالم العلوى المملوء عدلا ورحمة ؛ لعلى أجد فيه من يغفر لى ذنبى إن كنت بريئة ، ويرحمنى إن كنت مذنبة .

« لا أحب أن تكون حياتى يا بنية شؤمًا على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس بذنبى كلما رأوك بجانبى ، فأنا أتركك وحدك فى هذا المكان لعل راحمًا من الناس يمر بك فيعطف عليك ، ويضمك إليه ، من حيث لا يعلم شيئًا من أمرك ، فتعيشين فى بيته سعيدة هانئة ، لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمك فتؤلمك ذكراها .

« اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها ويكفل أمرها ، وأننى قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرعاها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يد لها فى الذى أذنبه أبواها ، فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك وإحسانك ، وهيئ لها صدرًا حنونًا ، ومهدًا لينًا ، وعيشًا رغيدًا .»

ثم بدأت تسرو ثيابها عن جسمها ، وتغطى بها جسم ابنتها وقاية لها من برد

الليل ، حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد ، تركته ليكون سترًا لعورتها عند انتشال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق ، فلثمتها فى جبينها لثمة أودعتها كل ما فى صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة :

« الوداع يا مارى . سنلتقى عما قليل يا جلبرت . المغفرة يا كاترين .»

وألقت بنفسها فى الماء .

قضى المركيز الليلة الأولى من ليالى شهر العسل مع عروسه فى شرفة القصر يسمران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ، ويرشفان من كل كأس من تلك الكؤوس رشفة تكثرًا بما عندهما منها ، حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما ، فلم يستفيقا حتى سمعا دوى الريح فى أبراج القصر ، وفى ذوائب الأشجار ؛ فعلما أنها الزوبعة فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإنهما لواقفان موقفهما هذا ، إذ لمحت المركيزة فى وجه المركيز دهشة واضطرابًا ، ورأته يلتفت التفاتًا شديدًا كأنما يتسمع لصوت غريب ، فسألته ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر ، فرأى كما رأت هى على نور القمر ، طفلة واقفة على الضفة تصيح وتعول ، وتشير بيدها نحو الماء ، وتقول : « أماه ! أماه ! » فنظرا حيث تشير ، فإذا امرأة عارية إلا قليلاً تتخبط ، فى لُجج الماءِ تخبط الغرق .

فترك المركيز مكانه ونزل يعدو إلى النهر ، وهو يقول : « وا لهفتاه إن كانت هى . » وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا .

حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم الفضاء فى عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر ، وأمر الباقين

أن يسبحوا وراء الغريقة ، ثم سقط فى مكانه واهنًا متهالكًا ، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء ، فسبح بعضهم وراء السابحين ، ووقف الباقون حول المركيز ينتظرون رحمة الله وإحسانه .

انتشر السابحون فى كل مكان ، ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم ، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة ، كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها ، عظم عندهم الأمل ، فاندفعوا وراءها مستبسلين مستقتلين يغالبون جبال الأمواج المعترضة فى طريقهم ، حتى إذا دنوا من المكان الذى لمحوها فيه لا يجدون أمامهم شيئًا ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم ، فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئا فشيئا حتى غابت عن الأعين ولم تظهر ؛ فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة يرسبون ويطفون ، ثم ظهروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحيَّة أم ميتة ، وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن فى الضفتين فتردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضفة ، فألقوها على الأرض فإذا هى ميتة .

وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مأتمًا قائمًا يبكى فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

لم ينتفع المركيز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضًا شديدًا ، فلم تلبث أن لحقت بأمها بعد ثلاث ليال ، واستحال الحب الذى كانت تضمره له وزوجته إلى بغض واحتقار ؛ فهجرته وسافرت إلى « نيس » ولزمه خيال ذلك المنظر الذى رآه

من شرفة القصر ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره . فكان كلما مشى فى طريق ، توهم أن أمامه نهرًا هائجًا تتخبط سوزان فى لُجَّته ، وتصيح مارى على ضفته ، فيصرخ قائلاً : « لبيك يا سوزان ! » ويندفع إلى الأمام كأنما يريد أن يلقى بنفسه فى النهر الذى توهمه لينجى الغريقة التى تخيلها ، فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب ، فيسقط حسيرًا طريحًا .

وكان يهيم على وجهه أحيانا حتى يصل إلى ضاحية قرية « لينى » فيرى امرأة عجوزًا مكبَّة على قبر بين يديها تبكى وتنتحب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن القبر قبر فتلاه ، فيتراجع خائفًا مذعورًا ، ويصرخ قائلاً : « الرحمة الرحمة ! العفو العفو ! »

وكثيرًا ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطًا فى بعض الأماكن التى كن يرين فيها جلبرت ، فيقلن : « لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة . » وكان منظر الماء يَهيُجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه، لولا أن يتداركه من يراه من المارة .

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته فى صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر فى المكان الذى غرقت فيه سوزان ؛ فعلموا أنها نهاية الجزاء .

مرَّت على هذه الحادثة أعوام طوال ، ولا يزال عجائز قرية « لينى » والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم ويبكين كلما ذكرنها ، ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بهن طائف من شرور الرجال .

***

العقاب

« موضوعة »

رأيت فيما يرى النائم فى ليلة من ليالى الصيف الماضى كأنى هبطت مدينة كبرى ، لا علم لى باسمها ، ولا بموقعها من البلاد ، ولا بالعصر الذى يعيش أهلها فيه ، فمشيت فى طرقها بضع ساعات ، فرأيت أجناسًا من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيل إلىَّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة ، وأن الذى أراه بين يدى إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه . فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان ، وأداول[1] بين الحركة والسكون حتى انتهى بى المسير إلى بِنية عظيمة ، لم أر بين البِنى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى فى أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا ، فسألت بعض الواقفين : « ما هذه البنية ، وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ » فعلمت أنها قصر الأمير ، وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل فى خصوماتهم .

وما هى إلا ساعة حتى نادى مناد فى الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بى المجلس ، فرأيت الأمير جالسًا على كرسى من الذهب يتلألأ فى وسط الفِناء

(١) داوَلَ كذا بينهم : جَعَلَه مُتَداولاً ، تارةً لهؤلاء وتارةً لهؤلاء .

تلألؤ الشمس فى دارتها ، وقد جلس على يمينه رجل يلبس مُسوحًا[1] وعلى يساره آخر يلبس طَيْلسانًا[2] ، فسألت عنهما ، فعَرفت أن الذى على يمينه كاهن الدير ، وأن الذى على يساره قاضى المدينة ، ورأيته ينظر فى ورقة بيضاء بين يديه ، فأكبَّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : « ليؤْتَ بالمجرمين . »

ففتح باب السجن وكان على يسار الفِناء ، فتكشف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيرًا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخًا هرمًا تكاد تسلمه[3] قوائمه ضعفًا ووهنًا ، فسأل الأمير :

« ما جريمته ؟ »

فقال الكاهن : « إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غِرارَة[4] من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء المساكين . »

فضج الناس ضجيجًا عاليًا وصاحوا : « ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله فى بيت الله ؟ » ثم نودى بالشهود . فشهد عليه رهبان الدير ، فتسارَّ الأمير مع الكاهن هنيهة ، ثم صاح :

« يقاد المجرم إلى ساحة الموت ، فتقطع يمناه ثم يسراه ، ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعامًا للطير الغادى والوحش الساغب ! » فجثا الشيخ بين يدى الأمير ، ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه ، فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه .

ثم عادوا وبين أيديهم فتى فى الثامنة عشرة من عمره ، أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفًا وفَرَقًا ، حتى وقفوا به بين يدى الأمير . فسأل :

(١) المُسُوح : جمع مِسْح بالكسر ، وهو ثوب من شَعَر يلبسه الرهبان .
(٢) الطَّيْلسان : الوشاح أو الشال .
(٣) أسْلَمَ : خذَلَ .
(٤) الغِرارَة : وعاءٌ من الخَيْش ونحوه لحفظ الحبوب .

« ما جريمته ؟ »

فقال : « إنه قاتل . ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال ، فأبى وتوقح فى إبائه ، فانتهره القائد فاحتدم غيظًا ، وجرد سيفه من غمده ، وضربه به ضربة ذهبت بحياته . »

فصاح الناس : « يا للفظاعة والهول ! إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه . » ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ، فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقال : « يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تُفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى فى جسمه قطرة واحدة من الدم . » فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن .

وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنًا وبهاءً ، لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها ، فقال الأمير :

« ما جريمتها ؟ »

فقال القاضى : « إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب ، كان يحبها ويطمع فى الزواج منها قبل اليوم . »

فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : « القتل القتل ! الرجم الرجم ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . »

فقال الأمير : « أين شاهدها »

فدخل قريبها الذى كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضى فى أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : « تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت ، فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ، ولا على عظمها قطعة لحم . » فهلّل الناس وكبروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه ، وإكبارًا لسطوته وقوته ، وهتفوا له

ولكاهنه وقاضيه بالدعاء .

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ، ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزينًا مكتئبًا أفكر فى هذه المحاكمة الغريبة ، التى لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم . وأعجب للناس فى ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة ، وغلوهم فى تقديسها وإعظامها ، وإغراقهم فى الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلمًا ، رحمة أو قسوة ، وأردد فى نفسى هذه الكلمات :

« ليت شعرى : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التى ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه ، إن قدر له أن يقف فى موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

« ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعًا عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جَوعته أو جَوعة أهل بيته ؟

« ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة فى حياته ، فيرحم القاتلين عند لنظر فى جرائمهم ؟

« ألم يسقطْ إلى يد الكاهن يومًا من الأيام دينار من غير حله ، فتخف لوعة سفه على الغِرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟

« ألم تزلّ قدم القاضى مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته ، فتهدأ ثورة ضبه على الساقطين والساقطات ؟

« من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون فى أرواح العباد موالهم كما يشاؤون ، ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

« إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون فى أيديهم عهدًا من الله تعالى بالنظر فى أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم . فبأى حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أى قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التى يستأثرون بها من دون الناس جميعًا ؟

« من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم فى الأمة ، أو سلالة المستبد الأعظم فيها ، الذى استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلمًا يصعد عليها إلى العرش الذى يجلس عليه ؟

« من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم فى استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟

« من هو القاضى ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟

« ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخيارًا صالحين وأبرارًا طاهرين ؟

« عجيب جدًا أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأمير القاتل سمّى عادلا ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصًا . فإذا أمر القاضى بقطع أطرافه والتمثيل به سمى حازمًا . وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزغة من نزغات الشيطان ، فيستنكر الناس أمرها، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب ، أنسوا بمشهدها ، وأعجبهم موقفها ومصيرها !

« كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر

بالشر ، ولا يمحى الشقاء فى هذه الدنيا بالشقاء . »

ولم أزل أحدّث نفسى بمثل هذا الحديث ، حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير فى جوها أسراب من الطير غادية رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظرًا هائلاً لا يزال أثره عالقًا بنفسى حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات . ورأيت الفتى مشدودًا إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما فى عروقه من الدم حتى أصبح شبحًا ماثلاً ، أو خيالاً ساريًا . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عينى قليلاً قليلاً ، حتى غاب عن نظرى كل شئ ؛ فسقطت فى مكانى لا أشعر بشىء مما حولى، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل .

ففتحت عينى فإذا شبح أسود يدنو منى رويدًا رويدًا ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ؛ فما زال يتقدم حتى صار بجانبى ، فأشعل مصباحًا صغيرًا كان فى يده ، فتبينته على نوره ، فإذا عجوز شمطاء فى زى المساكين وسحنتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ ، فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها ، وقامت على قبره تودعه وتقول :

« فى سبيل الله ما لقيت فى سبيلى وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد

المظلوم ، وفى ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجًا وأبًا ، وأطهرهم لسانًا ويدًا ، وأشرفهم قلبًا ونفسًا ؛ فاذهب إلى ربك لتلقى جزاءك عنده ، واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقنى بك وشيكا ، فلا شىء يعزينى عنك بعد فراقك إلا الأمل فى لقائك !»

فأبكانى بكاؤها وأحزننى منظرها ، ووقع فى نفسى أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها وقصته ، فبرزت من مخبئى ومشيت إليها ، فارتاعت لمرآى عند النظرة الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذى نزل بها .

فابتدرتها بقولى : « لا تراعى يا سيدتى ، فإننى رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئًا ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك ، وتمنيت لو أفضيت إلىّ بذات نفسك ، علّنى أستطيع أن أكون لك عونًا على همك .»

فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثنى وتقول : « إن زوجى لم يكن فى يوم من أيام حياته لصًا ولا سارقًا ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجدًا لا يفتر ساعة واحدة عن السعى فى طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعدما كان يستقل بحمله من الهم . وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر ، حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره . وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه همّ الكبر وهمّ الثكل ؛ فأصبح عاجزًا عن العمل لا يستطيعه إلا فى الفينة بعد

الفينة (١) ، وأصبحنا جميعًا فى حالة من الشقاء والبؤس ، لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألمّ به فى حياته طرف منها ، حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس فى يدنا ما نقوّم به أصلاب صغارنا ، ولا ما نعللهم به تعليلاً ، فأسقط فى يدنا ، وعلمنا أنّا هالكون جميعًا إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده .»

« فلم أر بدًا من أن ألجأ إلى الخطة التى يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم ، فلم أجد بينهم من يحسن إلىّ بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلنى على سبيل ذلك . وكان أكبر ما حال بينى وبينهم وصرف وجوههم عنى ، أنى ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل رَكْوتهم (٢) فعدت إلى منزلى وبين جنبى من الهم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهدًا يتضاعون (٣) جوعًا ، ورأيت الشيخ جالسًا بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إلىّ فى تلك الساعة ، لكان منظره أهون على نفسى من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون فى وجهى عند دخولى ، ويدورون حولى ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ، وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل .

« فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن فى دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات ، يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين ، فلو ذهبت إليه وكشفت له خَلّتك وسألته أن يمنحك عُلالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين .

---

(١) الفَيْنة : الساعة والحين . (٢) الرَّكوة : وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون . (٣) يتضاعون من الجوع : يتضورون منه .

« فاستنار وجهه بنور الأمل ، وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه ، فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام فى جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلا ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل ، وما كنت فى يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ؛ فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك ، فأبواب الجرائم أوسع منها ! »

« فخرج من حضرته كئيبًا محزونًا لا يرى فضاء الدنيا فى نظره إلا ككفة الحابل[١] أو أفحوص[٢] القطاة ، حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح فى إحدى زواياه غرارة[٣] دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العَوَز والفاقة ، ثم أدركه الحياء ؛ فأغضى عنها واستمر سائرًا فى طريقه حتى صار بجانبها ، فوقع نظره عليها مرة أخرى ، فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه ، فلم يستطع ، فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا فى جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر منى ، فإن كان الطمع فى هذه الغرارة جريمة فقد أذن لى الكاهن بارتكاب الجرائم فى سبيل العيش . »

« ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهدًا مترجحًا ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل ، وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه

---

(١) الحابل : الصائد لأنه يرمى الحُبالة للصيد ، وكِفته : حُبالته . (٢) الأفحوص : حفرة تحفرها القَطاةُ أو الدَّجاجةُ فى الأرض لتبيض وترقد فيها . (٣) الغِرارة : وعاءٌ من الخَيْش ونحوه تُحْفَظُ فيه الحُبوب . (٤) الألقاء : جمع لَقى ، واللَّقى الشىء المُلْقى المطروح

عن ظهره . ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء[١] تحت جدران البيت يتضورون جوعًا ، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى ، حتى نال منه الجهد فأحسَّ كأن أنفاسه قد جمدت فى صدره لا تهبط ، ولا تعلو ، وأن ما كان باقيًا فى عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة ، فأصبح لا يرى شيئًا مما حوله ، وإذا نفثة من دم دفقت من صدره فانحدرت على ردائه ؛ فسقط فى مكانه مغشيًا عليه .

« ولم يزل على حاله تلك ، حتى مرَّ به العسس[٢] فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ، الغرارة ! وينشدونها فى أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها فى كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هى إلا ساعة حتى كانت الغرارة فى الدير ، وكان الشيخ فى السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفاه عليه لقد مات شهيدًا مظلومًا ، ووارحمتاه لى ولأطفالى البؤساء المساكين من بعده ! »

ثم نهضت من مكانها ومسحت عَبرتها بطرف ردائها ، ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباى ، وعماد شيخوختى ، الوداع يا خير الأزواج وأبرَّ العشراء ، الوداع حتى يجمع الله بينى وبينك فى دار جزائه . » ثم انكفأت راجعة فى الطريق التى جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها فى أعماق الظلام ، حتى رأيت شبحًا آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول ، وما زال يتقدم نحوى متسللاً يختلس خطواته اختلاسًا ، فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع ، وكان القمر

---

(١) الألقاء : جمع لَقى ، والَّلقى المُلْقى المطروح . (٢) العَسَس : الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة .

قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه ، ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى ، فرأيت الشبح على نوره . فإذا فتاة جميلة باكية لم أر فى حياتى دمعة على خدٍّ أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة ، حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة ، فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت ، ثم احتملته على يدها وأضجعته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ، ثم هتفت صارخة : « واشقيقاه ! » وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيرًا متداركًا ، كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثًا ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوى الجذع الساقط لا حَراك بها .

فأهمنى أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه ؛ فمشيت إليها حيث صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد فى صدرها؛ فعلمت أنها حية ، فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة ، فرأتنى بجانبها فنظرت إلىَّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوى وقالت :

« على من تبكى أيها الرجل الغريب ؟ »

قلت : « أبكى عليك يا سيدتى وعلى فقيدك البائس المسكين . »

قالت : « نعم . إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدى كثيرًا ؛ فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه ؛ فما كان قاتلاً ولا مجرماً ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة فى يد من يريد تمزيقه ، فقطع تلك اليد الممتدة إليه ، وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لا ستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . »

قلت : « هل لك أن تقصى علىَّ قصته يا سيدتى ؟ »

قالت : « نعم . نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا ، وكنت واقفة على بابه فنظر إلىَّ نظرة مريبة طار لها قلبى رعبًا وفرقًا ، ثم سألنى عن أخى فأرشدته إلى مكانه ، فسأله عن المال فاستنسأه[1] إياه أيامًا قلائل حتى يبيع غلته ، فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذنى رهينة عنده إلى يوم الوفاء .

« وغمز لى بعض أعوانه فداروا حولى ، وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتى يدخلن رهائن فى قصر الأمير ، فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخى ولصقت به ، فوقف بينى وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال ، وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالى حتى يصل إليك . فقال له : لابد لى من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها .

« فغضب أخى غضبة انتفض لها فى جبينه عرق ، لم أره فى ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم ، وقال له : فلتكن حياتى فداء لشرفى . ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ، ووقف فى مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غلَّه[2] الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته يا سيدى وذاك مماته ، فلئن بكيته ، أنا أبكى فتى الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباءً ، وأفضل الإخوة رحمة وحنانًا . »

(١) استنسأ غريمه الدَّيْن : طلب منه أن ينسئه أى : يؤجله له . (٢) غلَّه : وضع فى عنقه الغلّ .

ثم قالت : «هل لك أن تعينني يا سيدى على مُواراتِه قبل أن يحول النهار بينى وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة ، لا أقوى على شئ ؟»

فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هى باكية أو ذاهلة ، حتى فارقت مكانها ، فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ، ثم مدت يدَها إلىَّ وقالت :

« شكرًا لك يا سيدى فقد أعنتنى على موقف قلما يجد فيه مستعين معينًا ، ومضت لسبيلها .»

فأتبعتها نظرى حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها ، فعدت إلى نفسى ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها ، فهاجنى منظرها ، وقلت فى نفسى : « إننى لا أدخر لنفسى عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مُواراةِ هذه المسكينة التراب .» فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ، ثم ألقيت عليها ردائى واحتملتها على يدى حتى أضجعتها فى حفرتها .

فإنى لأحثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائى ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرنى بقوله : « من صاحب هذا القبر الذى تحثو ترابه يا سيدى ؟»

قلت : « فتاة مرجومة ، رأيت جثتها الساعة منبوذة فى هذا العراء ، فرحمت مصرعها ، واحتفرت لها هذا القبر الذى تراه .»

فقال : « إن لى يا سيدى مع هذه الفتاة شأنًا ، فهل تأذن لى أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بينى وبينها ؟»

قلت : « نعم شأنك وما تريد . »

وتنحيت قليلاً ، فدنا من القبر وجثا فوق تربته ، وظل يناجى الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده فى سمائها والرياح فى أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها .

ثم التفت إلىَّ وقال : « لقد شكر الله لك يا سيدى هذه اليد التى أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيرًا بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها .»

وأراد الرجوع فاستوقفته ، وقلت له : « وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟»

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرة ، ونظر إلىَّ نظرة هادئة مطمئنة وقال :

« نعم يا سيدى . ولولا ذلك ما رأيتنى الساعة واقفًا على حافة قبرها أندبها . أنا الرجل الذى اتهموها به ، وأستطيع أن أقول لك ، كما أقول لربى يوم أقف بين يديه رافعًا إليه ظُلامتها : إنها بريئة مما رموها به ، وإنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

« لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتنى كذلك ثم شببنا وشب الحب معنا ؛ فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبنى [1] راضيًا مسرورًا ، حتى إذا لم يبق بينى وبين البناء [2] بها إلا أيام معدودات ، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عامًا كاملاً ، ففعلنا .

« حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضى المدينة فى أمر يتعلق بميراثها ، فرآها القاضى فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان

(١) أخطبه : قَبِل خِطبته . (٢) البناءُ بِها : الزِّفافُ إليها .

ولى أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحرًا من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته فى الزواج من ابنة أخيه ، فطار بهذه المنحة فرحًا وسرورًا ، ولم يتردد فى إجابة طلبه . وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى ، فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إننى لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين فى آن واحد ، فلم يُبل بقولها وقال لها : ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة ، فلا خيار لك فى نفسك إنما الخيار لى فى أمرك وحدى !»

« وما هى إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسَمَّوا يومًا لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم ، حتى جمعت ما كان لها فى بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أى طريق تسلك . وكان عمها قد رفع إلى القاضى أمر فرارها ، فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها فى كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران ، فأقبل عليها فذعرت لمرآة وتركت حقيبتها مكانها ، وفرت بين يديه تعدو عدوًا سريعًا .

« وكنت عائدًا فى تلك الساعة إلى منزلى ، فرأتنى فألقت نفسها علىَّ وقالت : إنهم يتبعوننى ، وإنهم إن ظفروا بى قتلونى ، فارحمنى يرحمك الله . فأهمنى أمرها وذهبت بها إلى منزلى وأخفيتها فى بعض حجراته . وما هى إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضى يطلبها طلبًا شديدًا ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقنى ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات بابًا بابًا حتى ظفر بها ، فصاح : ها هى الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها . فأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ إلىَّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها ، فضربنى أحدهم على رأسى

ضربة طارت بصوابى فسقطت مغشيًا علىّ ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمى ، فلزمت فراشى بضعة أيام لا أفيق ساعة ، حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى رأيته ؛ فأشعر بالرِّعدة تتمشى فى أعضائى ، فأعود إلى ذهولى واستغراق . حتى أدركتنى رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال ، واستطعت أن أخرج الليلة من منزلى ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما ترانى أودعها الوداع الأخير ، وأوارى جثتها التراب ، وما أنا بالسالى عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .»

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت فى طياتها جميع معانى النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائى ، وألقيت رأسى على بعض الصخور ، وأنشأت أحدِّث نفسى وأقول :

« ليت شعرى ! ألا يوجد فى هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض ، فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

« أجرم الزعيم الدينى ؛ لأنه ضنَّ على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ؛ فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسى على قسوته ، ولولا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق .

« وأجرم الأمير ؛ لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها ، فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى

على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجرام .

« وأجرم القاضى ؛ لأنه أراد أن يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضى على ظلمه واستبداده .

« وهكذا أصبح المجرم بريئًا ، والبرىء مجرمًا ، بل أصبح المجرم قاضى البرىء وصاحب الحق فى معاقبته !

« فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومُزنها ؟»

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظرى على بركة الدم التى اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم فى السماء يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظرى إلى النجم ، فإذا هو المريخ [1] يتلهب ويضطرم ، كأنه جمرة الغيظ فى أفئدة الموتورين ، فعلق نظرى به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويدًا رويدًا ، فيغظم جرمه كلما ازداد هبوطه ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به يتنفض انتفاضًا شديدًا ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومِنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطًا حتى نزل على رأس الشجرة التى تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد فى آفاق السماء ، ويقول :

« ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هى الأرض قد ملئت شرورًا وفسادًا ، حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة ، يستطيع أن يأوى إليها ملك من

---

(١) كوكب ، وهو أيضا « مارس » إله الحرب فى الأساطير .

أملاك السماء .

« هاهم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا ، وها هى لحوم الفقراء تنحدر فى بطون الأغنياء انحدارًا ؛ فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

« ها هم الفقراء يموتون جوعًا ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمدًا ؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

« ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التى وضعها الله فى أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفًا غيرها ، لا هى إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

« ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترسًا أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايتــه ، ولا يُنالون .

« ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوَّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضنّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

« ها هم الناس جميعًا قد أصبحوا أعوانًا للأمراءِ على شهواتهم ، والقضاةِ على ظلمهم ، وزعماء الأديانِ على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعًا نقمة الله ملوكًا ومملوكين ورؤساء ومرؤوسين .

« لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض فى بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار

والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .»

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ، ومشت تتدفق فى الأرض تدفق السيل المنحدر، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ، ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئًا فشيئًا ، حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التى أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومى ، وكان ذلك فى صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتى : إعلان الحرب !

*** *** ***

الضحيـــة

« مترجـــمة »

نشأت « مرغريت جوتييه » فقيرة لا تملك مالاً تشترى به زوجًا ، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسَه بلا مال ، أو يحسن إليها بما يسد خَلَّتها ، ويستر عورتَها ، وكان لا بد لها أن تعيش ، فلم تجد بين يديها سوى عِرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام ؛ فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان ، فباعته إياه كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شؤمًا عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت فى الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكنَّ الجمال سلعة من السلع النافقة (1) . لا يستطيع صاحبه أن ينال ما فى أيدى الناس إن كان فقيرًا معوزًا ، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نقمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعًا ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها ، الذى هو مطمع أنظارهم وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم لعِرضها وشرفِها .

ولقد برَّت يمينها برَّ الوفى بعهده ، فعاشرت الرجال و لم تحبهم ، ونكبتهم فى أموالهم ، وفى أنفسهم ، و لم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور ، وهى تقول :

---

(1) نفقت السلعة : راجت ورغب الناس فيها .

« ويح لكم يا معشر الرجال ، ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفًا واحدًا لغدائى وآخر لعشائى ، فأبيتموهما علىَّ ، فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تملك أيديكم من مال ونشَب ، بذلتموه لى طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم وأخس أقداركم !

« ولقد كان فى استطاعة أصغركم شأنًا ؛ وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعًا ، أن يشترى منى جسمىَ وقلبىَ وحياتى بلا ثمن سوى سدِّ خَلَّتى وصيانة عِرضى فلم تفعلوا ، فها هم أولاء اليوم عظماؤكم وأشرافكم يجثون تحت قدمى جُثِى الكلب الذليل تحت مائدة سيده ، فلا ينالون منى أكثر مما ينال منها !

« أحببتم المال حبًّا جمًّا ، فأبيتم إلا أن تتزوجوا ذات مال لتضموا طارفها إلى تليدكم (١) ، فابذلوا اليوم لامرأة مومس لا تمنحكم مالاً ولا حبًّا جميع ما فى أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد . »

ظهرت مرغريت فى سماء باريس كوكبًا متلألئًا يبعث الأنوار ويبهر الأنظار ، ويملأ أجواز الفضاء بهجة وضياء ، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر ، وسال النُّضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل ، وعنَت لها الوجوه الكريمة ، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة ، وأصبحت أعناق الرجال فى يدها ، كأنما قد سلكتهم جميعًا فى سلك واحد ، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون ، وتمسك عنه فيمسكون .

وكان شأنُها معهم شأنَ صاحب الكلب مع كلبه ، لا يشبعه فيستغنى عنه ، ولا يجيعه فييأس منه ، فكانت تملأ نفس عاشقها أملاً ورجاء ، حتى إذا ظن أن قد دنا به حظه ، وأن ليس بينَه وبين أملِه إلا أن يمدَّ إليه يدَه فينالَه ، ذادته

(١) الطارف من المال : حديثه ، والتَّليد : قديمه .

عنه ذود الظامئ الهيمان عن ورده أدنى ما يكون إلى فمه ، فإذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه ، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له ؛ بعثت وراءه شعاعًا من أشعة ابتساماتها العذبة الخلابة فاستردته إليها صاغرًا مستسلمًا .

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التى كانت تعوزها بالأمس اللقمة ، وتعييها الخرقة ، سيدةَ باريس وصاحبةَ عرشِها ، ومالكةَ أزمَّةِ رجالها ، وفاجعةَ قلوبِ نسائها ، والنجمَ الخالق الذى تبتهل إليه العيون ، والسرَّ الغامض الذى تحار فيه الظنون .

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ؛ أما ما تعلمه من أمر نفسها ، فهى ترى أن جميعَ ما يبذله لها الناس من فضة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ، لا يساوى دمعة واحدة من تلك الدموع التى سكبتها على نفسِها يوم باعت عِرضَها ، وأن جميعَ هذه اللآلئ والجواهر والأردية والتيجان التى يهبونها ، إنما يهبونها أنفسهم ليتمتعوا بمنظرِها فوق جسمها ، كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القِلادةِ فى عنق كلبِه ، وما له من ذلك شىء، فكأنما باعت عِرضَها بلا ثمن ولا جزاء !

وكانت تخلو بنفسها حينًا فتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرةِ حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وأنها إن حرمت هذا الجمال ساعة واحدة انفض الناس جميعًا من حولها ، وأصبحت وحيدة منقطعة فى هذا العالم ، لا يعطِف عليها قلب ، ولا تبكى عليها عين ، فتبكى بكاءَ الأشقياء على أنفسِهم ، بل ترى أنها شقية مثلهم ؛ لأنها تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها إلا حبًّا كاذبًا .

وربما مرت فى بعض غدواتها أو روحاتها بغرفةِ حارس قصرها وهو جالس

بين زوجه وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ، فتتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجًا وأولادًا كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئًا .

وما رآها الناس فى يوم من أيامها استقبلت فى قصرها رجلاً متزوجًا أو خاطبًا ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصًا لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها وألموا بسريرة نفسها ، لعلموا أنها امرأة حزينة منكوبة ، قد فجعها الدهر فى سعادة الزوجية فعرفت قيمتها فهى لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .

لقد تحدث بعض الذين ألموا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو ثلاثًا بعض الفتيات الفقيرات مهورًا يستعنَّ بها على الزواج ممن يردن ، فلم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهبًا ، وإن ينبوع الخير لا يمكن أن ينفجر فى قلوب النساء الفاجرات ! ولكن الحقيقة أنها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب « مرغريت » ، وهذه هى سريرة نفسها ، فهى فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ؛ وساقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلها ، ولو كان فى استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها فى قلوب الناس ، وأن تمحو بصلاحها ما سلف من فسادها لكانت هى أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذى أسقطها وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذى كانت ترتديه ، يأبى عليها أن يعيد إليها رداءه إن طلبته ؛ فلا بد لها من الاستمرار فى سقوطها راضية أو كارهة ، وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على « مرغريت » فى حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام ، حتى

نزل بها مرض حجبها فى بيتها عدة أيام ثم اشتد عليها ، فأشار عليها الأطباء أن تذهب إلى حمامات « البانيير » للاستشفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان فى ذلك المصطاف [١] فى هذا العام شيخ من الأثرياء اسمه « الدوق موهان » حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر ؛ ليستشفى لها من دائها. فلم يُجْدها العلاج وماتت بين يديه ؛ فدفنها هناك ولبث بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويبكيها بكاءً شديدًا .

فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح فى طريقه « مرغريت » سائرة وحدها ، وكان ذلك اليوم الثانى من وصولها إلى « البانيير » ؛ فدهش لمنظرها دهشة عظمى، وخيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها، أو أرسل إليه خيالها ليعزيه عنها لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها ذاهلاً مشدوهًا وأمسك بطرف ردائها ، وظل يحدق فى وجهها تحديقًا طويلاً ، فعجبت لشأنه وسألته ما باله ، فقال لها :

«هل تأذنين لى يا سيدتى أن أقبِّل يدك ؟» فمدت إليه يدها وهى لا تعلم ماذا يريد ولا ما الذى أصابه، فلثمها ثم اعتذر إليها عن جرأته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه فى ابنته وما راعه من الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلت دمعة رآها الشيخ من خلال أهداب عينيها المبتلة بالدموع ، فسقط على يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدمعة التى جادت بها عليه فى ساعة شقائه . ولم يزل سائرًا معها حتى وصلا إلى النُّزُل ، فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من حين إلى حين ، فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها .

(١) المُصْطاف : مكان الاصطياف .

فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر فى أمر تلك الفتاة المسكينة التى اختطفها الموت من يد أبيها فى زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائد رد عادية القضاء عنها . ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذى ماتت به ، وأنها ربما ماتت موتتها فلا تجد بجانبها أبا كهذا الأب يندبها ويبكى عليها ، فأثر فى نفسها هذا الخاطر تأثيرًا شديدًا ، وبكت له بكاء طويلاً ولزمت غرفتها فى ذلك اليوم لا تفارقها .

وظل « الدوق » يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد من الأنس بها ، والاغتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شبَّها[1] الوجد فى صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لذَّ لها أن يرى ذلك الشيخ الثاكل المنكوب فى وجهها سلوته وعزاءه ، فمنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحدًا من قبله ، وأنست به أنسًا لم تأنسه بإنسان سواه .

وما هى إلا أيام قلائل حتى أبلت من مرضها بعض الإبلال[2] ، وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع ابتسامه وافتراره ، فلذ لها المقام فى البانيير أيامًا طوالاً حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء ، فأزمعت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها فى ذلك المزدحم العظيم الحافل بخلانها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها فى البانيير ؛ فخلى بها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثًا طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى ، حياة المخالّة والمعاشرة وتعيش فى منزل يهيؤه لها ، ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا فى اليوم الثانى إلى باريس .

---

(١) شبَّ النارَ : أوقدها .   (٢) أبلَّ من مرضه : برئ منه .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش فى قصرها الذى هيأه لها الدوق عيشًا بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً . ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ، ومشت فى طريقها تقرأ فى كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة ، قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منتزه « الشانزلزيه » فتنزل من عربتها وتمشى فى الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها . فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ؛ فتقضى فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهافتين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقعها حتى تنتهى .

فلم تمض عليها أيام كثيرة ، حتى علم الناس جميعًا أن « مرغريت » قد استحالت حالها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة ؛ حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها فقصرت عنها أطماعهم وانقطعت منها آمالهم ، وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التى طرأت عليها . فذهبوا فى شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها ، وهى أن تلك الحادثة المحزنة التى حدثت لابنة الدوق شبيهتها فى صورتها ومرضها قد أثرت فى نفسها تأثيرًا شديدًا ، وصورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى ؛ فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما فى أيدى الناس ؛ لأنها [illegible]

الدوق فى نعمة لا يطمع طامع فى أكثر منها . وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذى لا يطمع منها فى أكثر من أن يراها ، تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتى ينعمن بنعمة الشرف فى ظلال آبائهن ؛ فأعجبها هذا الخيال ولذ لها ؛ وكثيرًا ما بكت ذلك الشرف قبل اليوم وحنت إليه .

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء بردًا وقُرًّا ؛ فثار ما كان كامنًا من داء « مرغريت » ، وعاد إليها نفثها وسعالها ، فظلت تكابد من مرضها آلامًا جسامًا ، لا تفارقها يومًا حتى تعاودها أيامًا ؛ فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن روَّحت (١) عنها برزت إلى الخلاء فى بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقى ؛ وربما ذهبت فى بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج (٢) ما هى فيه ، فتخلو بنفسها فى مقصورتها ساعة أو ساعتين ، ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى فى المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت إلى الملعب فتى فى زى أبناء الأشراف وشمائلهم ، لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه ويغضى عنها إن نظرت إليه ؛ ولا يلتقى نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه حمرة ويرفض جبينه عرقًا ؛ كأنما جنى جناية لا مُقيل له منها ؛ فلم تحفل به كثيرًا لأنها لم تر فى أمره شيئًا جديدًا ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ؛ وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه . وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها ، أنه الفتى الوحيد الذى كان يبكى فى ذلك المجتمع لمنظر المشاهد المحزنة التى تمثل على مسرح التمثيل ؛ لأنها تعلم أن الفتيان الفرحين المغتبطين بشبابهم وصحتهم

(١) روَّح عنه : تنفس عنه ما يضيقه . (٢) تفرج : طلب ما يفرج عنه .

لا يحفلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفِلوا بتمثيلها .

فإنها لخالية بنفسها فى مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو باردًا مقشعرًا إذ فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيرًا حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفًا ووهنًا فشعرت بيد تمسك يدها ، فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها ، فشعرت بالراحة قليلاً ، فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحدًا ورأت على بعد خطوات منها إنسانًا منصرفًا فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته تخيلاً ، فعجبت لأمره ومضت فى طريقها . فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمَّى تتمشى فى أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبلَّت قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التى تركها الفتيان الذين زاروها فى أثناء مرضها تجملاً وتلومًا ، فلم تقرأ واحدة منها .

ثم حدثتها الخادمة أن فتى كان يأتى للسؤال عنها فى كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان ينقبض انقباضًا شديدًا كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفتها إياه فوصفته لها فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمنت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر ، الذى لا عهد لها به فى أحد من الناس .

وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى ، فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة فى شرفة المنزل المطلة على الطريق ، فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذى كانت تراه فى المقصورة المجاورة لمقصورتها فى ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التى امتدت لمعونتها ليلة النازلة التى نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطرابًا شديدًا حتى كاد يرفضها ، ثم

شعر بمكان مرغريت من الشرفة فتلوم ومشى وراء الخادمة ، حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فتركته وانصرفت .

فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرقًا ولسانه لا يكاد يبين ، فمدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبلة طويلة ، عرفت مرغريت سر ما أودعها من عواطف قلبه ، وهى العالمة بأسرار القبلات ، ثم أذنته بالجلوس ، فجلس ، فأنشأت تسائله عن نفسه وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتبتسم له فيما بين ذلك ابتسامات تلاطفه بها ، وتمسح عن فؤاده ما ألمَّ به من الروع .

فحدثها أنه غريب عن باريس ، وأنه وفد إليها منذ عشرين يومًا من بلدته « نيس » ليقضى فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلبًا لتغيير الهواء وترويح النفس ، ثم يعود فى نهايتها إلى وطنه . فسألته :

« هل وجدت المقام حميدًا هنا ؟ »

فصمت هنيهة ، ثم نظر إليها نظرة منكسرة ، وقال : « لا يا سيدتى . »

قالت « لماذا ؟ »

فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها ، فعاد إلى صمته وإطراقه ، فأعادت عليه سؤالها .

فقال لها : « هل تأذنين لى يا سيدتى أن أقول لك كل ما فى نفسى . »

فشعرت بما فى نفسه قبل أن يقوله ، وقالت له : « قل ما تشاء إلا أن تطارحنى حبك وغرامك ؛ فإننى امرأة مريضة لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لا مؤونة فيها ، فأحرى أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام . »

فاصفر وجهه اصفرارًا شديدًا ، ومد يده إلى دمعة تترقرق فى عينيه ، فمسحها ، ثم قال لها : « ذلك ما يحزننى يا سيدتى ويبكينى وينغص علىَّ عيشى ، منذ هبطت باريس حتى اليوم ، فإننى رأيتك فأحببتك للنظرة

الأولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شىء ، وعلمت أنك تعيشين منذ شهور عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لآمل ، فانقطع أملى منك ، إلا أن حبى إياك لم ينقطع . ثم رأيتك بعد ذلك فى ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الأصفر الذى نسجته يد المرض على وجهك الجميل ، فاستحال حبى إياك رحمة وشفقة ، وأصبحت أبكى لمرضك أكثر مما أبكى لحبك . وأصبح كل ما أتمنى على الله فى حياتى أن أراك بارئة ناعمة ، موفورًا لك حظك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك فى شىء مما يطمع فيه المحبون المغرمون . فأنا أقف الساعة بين يديك لا لأطارحك الحب والغرام ؛ بل لأسأل أن تأذنى لى بالوقوف على بابك كلما جئته أسأل خادمتك عنك ، ثم أمضى لسبيلى من حيث لا ترين وجهى ، ولا تشعرين بمكانى . »

فسرت فى أعضائها رعدة غير الرِّعدة التى تعرفها من الحمَّى ، وخيِّل إليها أنها تسمع نغمة فى الحب غير النغمة التى كانت تسمعها قبل اليوم من أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى . ثم قالت له : « إنى آذن لك بذلك يا سيدى ، وأشكره لك شكرًا جزيلاً ، بل آذنك أن تزورنى كلما شئت ، على أن تفد إلىَّ صديقًا مساعدًا ، لا محبًّا مغرما ، فإنى إلى الأصدقاء المخلصين أحوج منى إلى المحبين المغرمين . »

ومدت إليه يدها ، فعلم أنها قد أذنته بالانصراف ، فقبلها وانصرف مسرورًا مغتبطًا ، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها ، فسقطت على وسادة بجانبها ، وقالت : « رحمتك اللهم ؛ فإنى أخشى أن أحبه ! »

لقد أحبته من حيث لا تدرى ؛ فإن الخوف من الحب هو الحب نفسه ، بل شعرت فى حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل ؛ فأصبحت تستقبله كل يوم فى منزلها ، وتأنس به وبحديثه أنسًا كثيرًا ، وتفضى إليه بذات نفسها إفضاء

الصديق إلى صديقه ، وتقص عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئًا
ولا تكتم عنه أمرًا ، ثم ترامى بها الأمر ، حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن
تخلف عن ميعاد زيارته بضع دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام
لأمر عرض له ، لم يتمكن من إخبارها به ، فحزنت لانقطاعه حزنًا عظيمًا
وذهبت بها الوساوس والظنون كل مذهب . ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا
الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم ، فقلقت لذلك قلقًا شديدًا ، وخفق قلبها
خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ، ولم يبق إلا
أن تتردى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وخوالجها
ما عالجت حتى أصبح الصباح ، وقد أضمرت فى نفسها أمرًا .

جاء « أرمان » فى صباح اليوم الرابع ، فوجدها طريحة فراشها ، وفى عينها
حمرة البكاء والسهر ؛ فارتاع لمنظرها ، وقال لها :

« لعلك سهرت بالأمس كثيرًا يا سيدتى أو بكيت؛فإنى أرى فى عينيك أثر
واحد منهما .»

قالت : « هما معًا يا أرمان . »

قال : « وهل حدث شئ جديد ؟ »

قالت : « اجلس بجانبى قليلاً أيها الصديق أحدثك حديثًا قصيرًا ، وربما
كان آخر حديث بينى وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا ترانى .»

فذعر ذعرًا شديدًا ، وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقلــه
ولسانه ، فلم يستطع أن يقول شيئًا وسقط بجانبها واهيًا متضعضعًا ، وظل
ينظر إلى وجهها نظر المتهم إلى وجه قاضيه ساعة نطقه بالحكم .

فأقبلت عليه تحدثه وتقول :

عرفتك يا أرمان ، فعرفت فيك الرجل الكريم الذى أحبنى لنفسى أكثر مما

أحبنى لنفسه ، والصديق الوفى الذى امتزجت فى قلبه عاطفة الحب بعاطفة
الرحمة والحنان ، فأوى إلىَّ مريضة حينما جفانى الناس لمرضى ، وعاش معى
بلا أمل حينما انقطع الناس عنى لانقطاع أملهم منى ؛ فأضمرت لك فى قلبى
من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ، وسعدت بك سعادة لم أشعر
بمثلها فى يوم من أيام حياتى .

« ولكن الله الذى كتب لى الشقاء فى لوح مقاديره من ضجعة المهد إلى
رقدة اللحد ، لم يشأ أن يمتعنى طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن يسلبنيها
وشيكًا ؛ فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التى
كنت أستمد منها سعادتى وهنائى قد أخذت تستحيل فى أعماق قلبى إلى عاطفة
أخرى غيرها لا أريدها لنفسى ، ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائى
وبلائى ؛ فخادعت نفسى عنها حينًا ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى
كان ما كان من انقطاعك عنى تلك الأيام الثلاثة ، فشعرت لغيابك بحزن
أقلقنى وأمضنى ، وملك علىَّ جميع عواطفى ومشاعرى ، ولو شئت أن
أقول ، لقلت إنه أبكانى كثيرًا ، وأسهرنى طويلاً .

« فعلمت وا أسفاه أننى قد أصبحت عاشقة ، وأن هذا الذى يختلج فى
قلبى ، ويقيمنى ويقعدنى ، إنما هو الحب والغرام ، فقضيت ليلة الأمس كلها
أفكر فى طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التى نزلت بى فلم أجد أحدًا
يخلصنى منها سواك ، فأنا أسألك يا أرمان ، باسم الصداقة والود الذى تعاقدنا
عليه بالأمس ، بل باسم الدموع التى طالما كنت تسكبها رحمة بى وإشفاقًا
علىَّ ، أن تنقطع عن زيارتى منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن
استطعت ، ثم لا تعد إلىَّ بعد ذلك ، فأحمل نفسى على الصبر عنك حتى يمنَّ
الله علىَّ براحة اليأس منك !»

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد مصفر ، كأن وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه شاخصتان إليها شخوص العين القائمة (١) التى تنظر إلى الشئ ولا تراه وبعد لأى ما (٢) استطاع أن يحرك شفتيه ، ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير :

« وما يخيفك من الحب يا مرغريت ؟ »

قالت : « يخيفنى منه العقاب الأليم الذى أتوقع أن يعاقبنى به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام فى فاتحة حياتى ، فقد كتب الله لنا — معشر النساء الساقطات — فى لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ، ونبتليهم بصنوف العذاب وأنواع الآلام ، حتى يغضب الله لهم ويغار عليهم ؛ فيبتلينا بحب نحمل فيه من العذاب جميع ما حمَّلناه الناس من قبل ، ونشقى فيه شقاء لا ينتهى إلا بانتهاء حياتنا ، فنموت بين يدى أنفسنا مهملات مغفلات ، لا ينعانا ناع ولا يبكى علينا باك ، فهذا الذى أخافه وأخشاه ، وأحب أن يسبق إلىّ أجلى قبل أن أراه .

« أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا أرمان ؛ فأنت أجل من ذلك عندى ، ولكنى أعلم أنك باق فى هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك سفرًا لا تملك بعده العودة إلىّ . فإن أبيت إلا البقاء بجانبى حال أهلك بينك وبين ذلك ؛ لأنهم قوم شرفاء يضنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارها وشنارها ، فلا تجد لك بدًا من الخضوع لهم والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقفَ الحيرةِ واللّوعة أطلب السبيل إليك فلا أجدك ، والسلو عنك فلا أستطيعه . وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنف

(١) العين القائمة : التى ذهب نورها وبقيت حدقتها صحيحة . (٢) اللأى : الجهد والمشقة ، و (ما) هنا زائدة .

ذلك الشيخ الكريم الذى أحسن إلىّ إحسانًا كبيرًا ؛ فطردنى من بين يديه عقابًا لى على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجد لى بدًا من الرجوع إلى حياتى الأولى — حياة الشرور والآثام ، والهموم والآلام — التى أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

« إنى أعلم يا أرمان أنك تحبنى حبًا جمًّا ، وأنك ستكابد فى ابتعادك عنى عذابًا كثيرًا ، ولكنى أعلم أن لك قلبًا شريفًا يحتمل العذاب فى سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلى ، فإنك أقدر منى على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو الله تعالى ليلى ونهارى أن يمنحنى الصبر عنك ، ويرزقنى راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحنى ؛ فلعله يرحمنا جميعًا ! »

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضعضعًا متهالكًا ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقًا حتى بلغه ، فوقف على عتبته ، والتفت إلى مرغريت ، وألقى عليها تلك النظرة التى يلقيها المُحْتَضَرُ على أهله فى آخر لحظات حياته ، وقال لها : « الوداع يا مرغريت ! » ومضى .

فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمَة مختبلة ، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به ! ثم تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ؛ فأدركها رشدها وأناتها ، فعادت إلى فراشها تبكى وتنتحب ، وتعول إعوالاً شديدًا ، وتدور فى أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة ، وهى تصيح : « أرجعوه إلىّ . لا أستطيع فراقَه ، سأموت من بعدِه . » وإنها لكذلك إذ سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة ، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت الصوت ، حتى بلغت باب المنزل فرأت « أرمان »

ساقطًا تحت عتبته مغشيًا عليه ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله، ثم ألقت نفسها عليه ولثمت ثغره لثمة هى أوَّلُ لثمة ذاقت فيها لذة العيش فى حياتها ، فشعر بها « أرمان » فاستفاق ، وضمها إلى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شىء من نعيم الدنيا وهنائها !

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء « مرغريت » وعناؤها ، فقد أبلَّت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترحت على أرمان أن يتركا باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما فى بعض الأماكن الخالية ؛ فقبل مقترحها وسافرا معًا يفتشان عن المكان الذى يريدان حتى بلغا قرية «بو جيفال». وهى ضاحية من ضواحى باريس على بعد ساعتين منها، فوجدا فى بعض أرباضها منزلاً صغيرًا منفردًا واقعًا على رأس هضبة عالية فى سفح جبل مخضر ، تجرى من تحته بحيرة صافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما ، فاكترياه ، ونقلت « مرغريت » إليه من منزلها فى باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع .

ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشًا ناعمًا هنيئًا ، لا تضطرب فى سمائه غَيْمَة ، ولا تمر بصفحته غَبْرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء ووساوسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو منحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقًا صغيرًا يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوبًا ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهما من لفحات الهجير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من العشب الممتد فى تلك البطحاء الفسيحة . يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال الماثل فى الشاطئ ، والأمواه والأخاديد ، والوديان والغابات والحَرَجَات ،

والكهوف والأغوار ، والغيوم والسحب والأضواء فى تشكلها وتلونها ، والظلال فى تحولها وانتقالها ، وفى رؤوس الجبال اللاصقة بجِلْدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفى قطع الصخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفى تلك المعركة التى تدور فى كل يوم مرتين بين جيشى الأنوار والظلمات فينتصر فى صدر النهار أولهما ، ثم يُدال فى آخره لثانيهما . حتى إذا جاء الليل ، عادا إلى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه ، ورشفا من كل ثغر من ثُغورِ السعادة رشفة تسرى حلاوتها فى قلبهما حتى تصيب صميمه .

مر بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يختلساه من يد الدهر فى غفلته ، ثم انتبه لهما بعد ذلك — وويل للسعداء من انتباهه بعد إغفائه — فقد نضب أو أوشك أن ينضب ما كان فى يد « أرمان » من المال ، وكان فى يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يستعين به على البقاء فى باريس مدة أخرى ، زاعمًا أنه لا يزال مريضًا متألمًا لا يستطيع السفر ، وكذلك كان يفعل من حين إلى حين . فلم يأته الرد ، فأقلقه ذلك قلقًا شديدًا ، وظل يختلف إلى المدينة فى كل يوم ، يسأل فى فندق « تورين » الذى كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذى ينتظره فلا يجده ، فيعود حزينًا منقبضًا ، حتى إذا وصل إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه ، تَطلَّق وتبسَّم كأنه لا يضمر فى نفسه همًّا قاتلاً .

ولكن عين مرغريت أقدر من أن يعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه ، فاكتنهت سرَّه فكاشفته به ، وقالت : « لا يحزنك شأن المال يا أرمان ؛ فإن عندى منه ما يكفينا العيش معًا سنين طوالاً . »

و لم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رَفْده مذ عرف

قصتها مع « أرمان » ، وعلم أنها خانته وخانت بعهده ، بل كانت مدينة بمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ، بل أصبح دائنوها يتقاضونها ديونهم بعدما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها .

ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة لم تفكر فى عاقبتها ، فأكبر « أرمان » ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شديدة ، وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسافر إلى « نيس » ليأتى منها بالمال الذى يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجًا شديدًا وخافت عاقبته ، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه ، وتبذل فى ضراعتها ورجائها فى سبيل بقائه أكثر مما بذلت قبل اليوم فى سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ، ورضى بالتى لم يكن يرضى بمثلها لولا لهفة الحب وضراعة الدموع ؛ وقد أضمر فى نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه فى الميراث الذى ورثه من أمه ؛ مكافأة لها ووفاء بحقها . فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأنشأت تبيع القطعة بعد القطعة ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم أرمان ! واستمرا على ذلك بضعة أشهر . حتى دخل عليهما فى يوم من الأيام فى ساعات أنسهما وصفائهما خادم فندق « تورين » الذى كان ينزل به أرمان فى باريس وقال له إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

قال دوفال لولده : « لقد كذبت علىَّ كثيرًا يا أرمان ؛ وما كنت قبل اليوم كذابًا ، ولا خادعًا ، ورضيت لنفسك بحياة كنت أضَنَّ الناس بنفسك على مثلها من قبل ؛ ومزقت بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذى لا يزال مسبلاً على وجهك ؛ وأصبحت تتبذل فى العيش مع امرأة عاهرة ؛ كل ما لها من الشأن عند نفسها ؛ وعند الناس جميعًا أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ؛ وفُتات المائدة العامة التى يجلس عليها الناس جميعًا

صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا ، وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معى إلى « نيس » ؛ فلست بتاركك بعد اليوم فى هذا البلد ساعة واحدة .»

فرفع « أرمان » رأسه إلى أبيه ؛ وقال له بصوت هادئ مطمئن :
« لا أستطيع يا أبتاه ! »

فنظر إليه أبوه نظرة شزراء ، وقال له : « وتلك سيئة أخرى ؛ فقد أصبحت لا تعبأ بى ، ولا تبالى بمخالفة أمرى من أجل امرأة ساقطة ، لا شأن لها معك إلا أن تعبث بعقلك ؛ وتسلبك مالك وشرفك ؛ وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك . »

قال : « لا يا أبتاه ؛ إنها ليست بعابثة ولا خادعة ، ولكنها تحبنى حبًّا جمًّا لم يحبه أحد من قبلها أحدًا ، وأحسب أنى إن فارقتها قتلتها ، وجنيت عليها جناية لا يفارقنى الندم عليها حتى الموت . »

قال : « ذلك ما يخدع به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها ، بل لهن ألسن يختلن بها الرجال ويسلبنها حَجبًا بين بعضهم وبعض ! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الحظوة لديها ، من دون أصحابه جميعًا . »

قال : « ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهى لا تحب أحدًا غيرى ، بل لا تعرف أحدًا سواى ، فهى تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن ؛ لأن الخليلة التى تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التى تخون زوجها ، وأخشى إن فارقتها أن تثور فى نفسها ثورة اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى ؛ حياة الشر والفساد ، والشقاء والعذاب ، بعدما استنقذت نفسها !»

قال : « وهل ترى أن وظيفةَ الرجل الشريف فى هذه الحياة إصلاحُ النساء

الفاسدات ؟»

قال : « ذلك خير له من أن تكون وظيفتُه إفسادَهن ؛ فإن الأشرافَ فى هذا العصر يفخرون بإفسادِ النساءِ الصالحات ، واستدراجِهن إلى مواطن الفِسق والفجور ، وإصلاحُ المرأةِ الفاسدة ، أدنى إلى الشرفِ من إفسادِ المرأة الصالحة .»

قال : « لقد أصبحتَ كثير الرحمة يا أرمان . »

قال : « لم لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها فى الناس من يعولها من ذى قرابة أو ذى رَحِم ، وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلل عنها ، إلا أن يهدأ عنها حينًا ويستيقظ أحيانًا ، فهى تكابد الألم مرة ، والخوف من الألم أخرى ؟ ولا عزاء لها فى حالتها إلا هذه السعادة التى تتوهمها فى الحب ، وترى أنها ناعمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شئ فى الحياة ، وعظم حزنها وبؤسها ، وثقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتى على البقية الباقية من حياتها .

« فدعنى معها يا أبتاه عامًا آخر أو عامين أهوِّن عليها فيهما شقاءها ، فربما كان ذلك آخر ما قدر لها أن تقضيه من أيامها فى هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب ، ساكن الضمير ، راضيًا عن نفسى وعن عملى ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويُهون وجدى عليها كلما ذكرتها أننى لم أخنها ، ولم أغدر بعهدها .»

فأطرق دوفال هنيهة كأنما يعالج فى نفسه همًّا معتلجًا ، ثم رفع رأسه ، ونظر إلى ولده نظرة تشبه نظرة العطف والرحمة ، وقال له : « لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بنى فحسبى ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أختك ورائى تندبك وتبكى عليك صباحَها ومساءَها ؛ وتحنُّ إلى

لقائك حنين الظامئ إلى الورود ! واعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك فى هذا الشأن ، لا يغنى عنك ولا عنى شيئًا يوم يقول الناس كلمتَهم التى لا بد أن يقولوها غدًا . وربما قال كثير منهم قبل اليوم إن أرمان دوفال سلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس فى بيت واحد ؛ فعد إلى نفسك يا بنى واستلهم الله الرشد يلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على عقلك . ودع هذه الحياة الساقطة التى يحياها من ليست له همة مثل همتك ، ولا مجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك ، وإنى تاركك الآن وحدك وذاهب عنك لبعض شأنى لتخلوَ بنفسك ساعة تسترد فيها ما عزب عنك من صوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التى أرجو أن تكون شفاءَ نفسى ، ورواءَ غُلَّتى .»

ثم تركه ونزل فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتابًا خاصًّا . ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم فى باريس ، فزارهم زيارة طويلة ؛ فلم يعد إلى الفندق حتى أظل الليل ، فرأى أرمان لا يزال فى مكانه . فسأله ماذا رأى ، فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تحدُّر القطر على أوراق الزهر ، وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه ويكشف له من خبيئة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول :

« والله يا أبت لو علمت أنى أستطيع الحياة بدونها ، لفارقتها برًّا بك وإيثارًا لطاعتك ، ولكنى أعلم أنى إن فعلت فقد وضعت أمرى فى موضع الغَرَر[1] ، وخاطرت بعقلى أو بحياتى مخاطرة لا أعلم ماذا يكون حظى فيها . ولا أحسبه إلا أسوأ الحظين ، وأنحس النجمين ، ولو أن أحدًا من قبلى استطاع أن يدفع هواه عن قلبه أو يمحو ما قدر له فى صحيفة قضائه من شقاء الحب وبلائه

(١) الغَرَرُ : التعرض للهَلَكَة .

لسلكت سبيله التى سلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحَين أريد لى ، فلا رأى لى فى رده ، ولا حيلة لى فى اتقائه ، وقد نزلت هذه الفتاة من نفسى منزلة هى منزلة الحياة من الجسم ، والغيث من التربة القاحلة ، فإن كنت لا بد آخذى فخذ معك جسمًا هامدًا لا حَراك به ، ونبتة ذاوية لا حياة فيها !»

فوضع أبوه يده على عاتقه ، وقال له : « قم الآن يا بنى واذهب لشأنك ، وعد إلىَّ صباح الغد لأتم حديثى معك ، وأرجو أن تكون فى غدك خيرًا منك فى أمسك .»

فخرج محزونًا مكتئبًا يمشى مِشيةَ الذاهل المشدوه ، لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربة ، فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد هَدْأة من الليل ، فلم ير مرغريت فى شرفة البيت تنتظره كعادتها ، فدخل عليها غرفتها فرآها مكبة على منضدة بين يديها كأنما هى نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة . فخيل إليه عند نهوضها أنه لمح فى يدها رسالة تضم عليها أصابعها ، فظنها بعض تلك الرسائل التى كان يرسلها إليها المركيز « جان فيليب » من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها فى عهدها الأول حبًّا شديدًا ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمنّيها الأمانى الحسان فى عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها .

فلم يحفل « أرمان » بذلك ومشى إليها فقبلها ، فقالت له : « ماذا يا أرمان ؟ »

قال : « أرادنى أبى على السفر معه فأبيت، وبكيت بين يديه كثيرًا فلم أنل منه منالاً ، وقد أمرنى بالعودة إليه غدًا ولا أريد أن أفعل ؛ لأنى لا أحسب حظى

منه فى الغد خيرًا منه اليوم . وقد أصبحت نفسى تحدثنى بعصيانه ، والبقاء هنا على الرغم منه ؛ لأنى أعلم أنى قد تجاوزت السن التى يحتاج فيها الأبناء إلى إرشاد الآباء ، ولأنى لا أعرف أحدًا بين الناس يستطيع أن يرسم لى خطة سعادتى كما أرسمها لنفسى .»

ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ، ونظر إليها فإذا هى مطرقة صامتة ، وإذا وجهها أصفر مربد كأنما قد نفض الموت عليه غباره !

فقال : « ما بالك يا مرغريت ؟ »

قالت : « أشعر بألم شديدة فى رأسى ، وأريد الذهاب إلى مخدعى .»

فأخذ بيدها إليه ، وجرَّعها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ، ثم نامت فى مخدعها نومًا مشرَّدًا مذعورا ، تتخلله أنات طويلة وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح ، فقالت له : « أرى لك يا أرمان أن تعود إلى أبيك كما أمرك ، وأن تعاودَ استرحامه واستعطافه لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت عنه بالأمس . إنى لا أكون راضية عن نفسى ، ولا هانئة بحياتى ، إن لم يكن أبوك راضيًا عنك . »

ولم تزل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها . ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة ، كأنما يضن بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزِع ، ثم قبلها ، وقال لها : « إلى المساء يا مرغريت . » فلم ترد عليه تحيته حتى أبعد عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : « أرجو أن يكون كذلك . » وتهافتت على كرسى بين يديها باكية منتحبة .

ولم يزل أرمان سائرًا فى سبيله حتى وصل إلى باريس ، فذهب إلى فندق « تورين » فلم يجد أباه هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتًا طويلاً حتى عاد بعد منتصف النهار ،

وقد رقت قليلاً تلك الغمامة السوداء التى كانت تلبس وجهه بالأمس ، فتقدم نحوه أرمان ، فحيّاه ، فقال له :

« لقد فكرت ليلة أمس فى أمرك كثيرًا يا بنىَّ فرأيت أنى قد قسوت عليك وغلوت فى أمرك غلوًّا كبيرًا ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التى كان يجب علىَّ أن أنظر إليها ، فإن للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة ، وحالاً خاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا يختلف فيها سوقَة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بنى كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التى تحبها كما تريد ، على أن تعدنى بالعودة إلىَّ فى اليوم الذى تنقطع فيه الصلة بينك وبينها انقطاع حياة أو موت ، فإنى إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها من النساء . »

فاستُطيرَ أرمان فرحًا وسرورًا ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويبللها بدموعه ، ويقول : « أعدك بذلك يا أبتاه وعدًا لا أخالفه ، ولا أخيس به ، ولك حكمك ما تشاء إن رأيتنى بعد اليوم كاذبًا أو حانثًا . »

ثم نهض يريد الذهاب ، فقال له :

« أين تريد ؟ »

قال : « أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها ما ألمَّ به من الروع منذ الأمس . » فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمعة كانت تترقرق فى عينيه .

ثم التفت إليه وقال : « ابق معى يا بنىَّ فربما سافرت غدًا ، ولا أعلم بعد ذلك متى أراك . »

فبقى معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فاستأذنه فى الذهاب إلى بوجيفال فأذن له فحيّاه وخرج ؛ فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ؛ فانحدرت من

جفنه تلك الدمعة التى كان يحبسها من قبل ، وقال : « وارحمتاه لك أيها الولد المسكين ! »

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التى يرجوانها فى مستقبل حياتهما ، وطار بها إليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال ، فأدهشه أن رأى البيت مظلمًا ساكنًا لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يتراءى فيه ظل ؛ فمشى إلى الباب فرآه مرتجًا ، فوضع أذنه على خصاصه ، فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعًا شديدًا ، ويهتف باسم « مرغريت » مرة واسم « برودنس » أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال فى نفسه : « لعلها ذهبت إلى بيتها فى باريس لبعض شأنها واستصحبت خادمتها ، ولا بد أن تعود الآن . »

فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هدأة من الليل فلم تعد ، فحدثته نفسه بالعودة إلى باريس للبحث عنها فى مظان وجودها ، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك فى ذهابه طريقًا غير الطريق التى تسلكها فى عودتها ، فاستمر فى مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حينًا ويتمشى أحيانًا ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القلِق المرتاع إلا حديث خيانتها وغدرها .

ولم يزل فى حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تدب فى فحمة الظلام ، فساء ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال فى نفسه : « ما لمرغريت بد من شأن ، ولا بد لى من المصير إليها ، والنظر فى الشأن الذى شغلها ! » وكان القلق والسهر قد أخذا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ؛ فمشى فى طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار .

فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة الحديقة يُشذِّب أغصانها ، فسأله عن مرغريت ، فقال : « إنها حضرت هنا بالأمس فى منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوبًا من أثواب الولائم ، فأعطتنى كتابًا ، وقالت لى إذا جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عنى فأعطه إياه ، ثم ركبت عربتها هى وخادمتها وانصرفت . »

قال : « ألا تعلم أين ذهبت ؟ »

قال : « أحسب أنى سمعتها تقول للحوذى عند ركوبها : إلى منزل المركيز جان فيليب . »

فجمد أرمان فى مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ، ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذى رآه فى يدها بعد عودته إليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته ، وعاد إليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرَّ نظره عليه إمرارًا فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعادًا شديدًا ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته ، فإذا هو مشتمل على هذه الكلمات :

« هذا آخر ما بينى وبينك يا أرمان ؛ فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بى ، ولا تسألنى عن السبب فى ذلك ، فلا سبب عندى إلا أنى هكذا أردت لنفسى ، والسلام . »

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طَرْفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفًا ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشذب أغصانها ويتغنى فى صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامى يعجبه لحنها ،

وإن كان لا يفهم معناها .

فإنه لكذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفأسه وهُرع إلى ناحية الصوت فرأى أرمان صريعًا معفرًا تحت عتبة الباب ، ففزع فزعًا شديدًا وظنها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقى من دقات قلبه ، فاطمأن قلبًا وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجهه ، ويدلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالسًا بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال فى يده . فدار بعينيه حول نفسه فمرت بخاطره فى الحال ذكرى مصرعه القديم فى هذا المكان عينه منذ خمسة عشرَ شهرًا يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ورسمت على ثغره أول قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : « ما أبعد اليوم من الأمس ! »

وأنشأ يبكى بكاء الطفل الذى حيل بينه وبين ثدى أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزيه عن مصابه ، ويهوِّنه عليه حتى هدأ قليلاً . فأمره أن يستدعى له عربة ففعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب ، وقال للسائق : « إلى فندق تورين . » فسارت به العربة إليه ، حتى إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق الخاطف ، تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى ، ثم راجع صورتهما فى خياله فإذا هما : « جان فيليب ومرغريت » ، وكانت مَرْكَبَته قد وصلت به إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائمًا مختبلاً ، فقال :

« ما دهاك يا بنىَّ ؟! »

قال : « قد خانتنى يا أبتاه . »

قال : « ذلك ما أنذرتك به قبل يا بنىَّ . »

ثم انقضى النهار ، وجاء الليل فقضاه أرمان ساهرًا فى مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض فى نفسه جميع أطوارها وشؤونها فلم تبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل فى مراجعته إلى الأمس واليوم الذى قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه فى شرفة البيت كعادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المركيز فى يدها عندما دخل عليها غرفتها وضنها به ضنًّا شديدًا ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضها عن التبسط معه فى الحديث بعدما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائرة لا تستطيع البقاء معه ، وإلحاحها عليه فى صباح اليوم الثانى إلحاحًا شديدًا فى العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضيًا عنه ، فاستنتج من هذا كله أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال وأن أباه إما أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتر عليه الرزق تقتيرًا ، ملته واجتوته ، وفكرت فى سبيل الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المركيز فكان هو طريق خلاصها .

ولم يزل هائمًا ما شاء الله أن يهيم فى تصوراته وأوهامه حتى غلبته عيناه فهجع قليلاً ، ثم استيقظ فى الصباح فدخل على أبيه فى مخدعه ، وقال له :

« لى عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها وأريد أن أبتاعها منك بخضوعى لك ونزولى على حكمك أبد الدهر فيما سرنى أو ساءنى ، فهل لك أن تبلغنيها ؟ »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « أريد أن تعطينى الساعة خمسة عشر ألف فرنك . »

قال : « وما تريد منها ؟ »

قال : « أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسى من دون الناس جميعًا حتى من دونك . »

فنظر إليه أبوه نظرة الملم بما دار فى نفسه ولم يعاوده ، وأعطاه صكوكًا بالمال الذى أراد ، فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتابًا طويلاً ختمه بهذه الكلمة :

« أما وقد عرفت أننى كنت أعيش مع امرأة عاهرة ساقطة لا عهد لها ولا ذمام، فها هى ذى أجرة لياليك الماضية مرسلة إليك . »

ثم خرج ليعد نفسه للسفر ، فقضى اليوم كله خارج الفندق ، ثم عاد إليه دُبُر النهار ؛ فوجد فيه كتابًا باسمه ففض ختامه فإذا الأوراق التى أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هى وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فمنعه أبوه من ذلك وقال له : « قد وعدتنى ألا تخالفنى فى أمر فلا بد لك من الإذعان . » فأذعن ثم سافرا معًا تلك الليلة إلى نيس .

كذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الوفيان والعاشقان المخلصان ، فعاد الفتى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التى كانت تأباها الإباء كله ، وتخافها الخوف الشديد ، وفى نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والحسرة عليه ما لا تنيه (1) ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام .

الأشقياء فى الدنيا كثير ، وأعظمهم شقاءً ذلك الحزين الصابر الذى قضت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك ، ثم يغلق دونها بابًا من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس

(1) تنيه : تضعفه .

باش الوجه باسم الثغر متطلقًا متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًّا ولا كمدًا .

ذلك كان شأن « مرغريت » بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التى تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ،تضىء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها مخدعها وخلا لها وجه الليل مرت أمام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التى قضتها بجانب « أرمان ».

ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم ، ولا تجد فى نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بدًّا من مماذقتهم والتحبب إليهم والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبّل الأفواه التى لا تشتهيها وتعتنق القامات التى لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها، وتضحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتنشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق .

فكأنها فى يد الناس العود فى يد المغنى يقطع أوتاره ضربًا ليطرب لنغماته ، أو الزهرة فى يد المقتطف يعصر أوراقها عصرًا لينعم بشذاها ، فتهيجها ذكرى ذلك الماضى السعيد ، وهذا الحاضر الشقىّ ، فتطلق السبيل لزفراتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتفى نفسها ، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين سَحْرها ونحرها ، ثم تأوى إلى مضجعها فتجد برد الراحة فى صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تزل تكابد من الشقاء فى تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لمثلها

باحتمال مثله ، حتى استيقظ فى صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حينًا من الدهر ، فهزل جسمها وشحب لونها وغاض ماء ابتسامتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأن نفسها عن شأن المركيز فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها . ثم اختلف عليها من بعده الأخلاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها ؛ فكسدت سلعتها فى سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم فى لثم مواطئ أقدامها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأعوزها المال إعوازًا شديدًا ؛ فمدت يدها إلى ما كان باقيًا عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يف بدينها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين ، فأرسل إليها قليل منهم القليل منها ، فلم يغن عنها شيئًا .

واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعتهم عنها حينًا ثم عجزت ، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها وأثاث بيتها ورياشه . ولؤموا فى مقاضاتها لؤمًا ضاعف حزنها ومرضها ، وقضى على بقية ما كانت تضمره فى نفسها من الأمل فى الحياة والسعادة فيها ، فنسيت العالم خيره وشره والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا فى أمر واحد تقوم وتقعد به ليلها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة مذ فارقها ولا كتب إليها ؛ فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

« تعال إلىّ يا أرمان راضيًا كنت أو غاضبًا ؛ فإننى مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتى ، لأفضى لك بسر الذنب الذى أذنبته إليك فيما مضى ،

والذى لا تزال واجدًا علىّ بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تعفو عنى فى ساعتى الأخيرة فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبرى ، واذكر يا أرمان ، أن أول عاطفة جمعت بينى وبينك وألفت بين قلبى وقلبك ، كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هى الفتاة المريضة المسكينة التى رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها ، وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذى كتبته إلىّ قبل سفرك فقد اغتفرت لك كل ما فيه ، حتى قولك إننى كنت كاذبة فى حبك ، طامعة فى مالك ؛ لأنى أعلم أن المرأة التى تكذب الناس فى حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع .»

ثم لبثت تنتظر حضوره أيامًا طوالاً فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزنًا شديدًا ، وساء ظنها به ، ووقع فى نفسها أنه قد سلاها واطرحها ، وأصبح لا يعبأ بها ، ولا يبالى بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو شقائها ، وكانت مخطئة فيما ظنت . فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذى أرسلته إليه مذ فارقها فى العام الماضى وسافر إلى « نيس » ولم يستطع البقاء فيها إلا أيامًا قلائل ، ثم ملكه الضجر وأحاطت به الوحشة ، وضاقت فى وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحًا عن نفسه وتفريجًا من كربته ، فأذن له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها وأخذ يتنقل فى أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير به الضجر إلى غيره ، فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده .

فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها فى نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه ، ومرغريت لا تعلم بشىء من ذلك ؛ فحزنت لخيبة أملها حزنًا شديدًا ، ودب اليأس فى قلبها دبيب الموت فى الحياة ، ووقع فى

نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شىء حتى من هذه الأمنية التى بقيت فى يدها من بين جميع آمالها الضائعة .

فتنكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه خيرًا ولا شرًّا ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شىء تنكره ولا تعرفه ؛ فربما دخل عليها طبيبها وهى فى أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألمًا ، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم فى فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون !

وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى بوجيفال فزارت البيت الذى قضت فيه أيام سعادتها الذاهبة ، وكان لا يزال باقيًا على الصورة التى تركته عليها يوم فارقته ومرت بغرفه وقاعاته ، وجلست فى كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبلت جميع آثاره وبقاياه ، ولثمت الكأس التى كان يشرب بها ، والزهرة التى كان يحبها ، والقلم الذى كان يكتب به ، والكتاب الذى كان يقرأ فيه .

فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، فربما طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته فى نيس ، أو يبثها ما يضمره لها فى نفسه من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ ، وتستشعر فى نفسها لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون فى جنات النعيم ، ثم تفتح عينها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكى ما شاء الله أن تفعل ، ثم تعود إلى بيتها فى باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجى أرمان فى مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعها !

***

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

« أرمان :

« لم تكتب إلىَّ ولم تأتنى ، كأنما ظننت أنى أريد أن أستعيد معك عهد الماضى ، وأين أنا من ذلك العهد ! فلو رأيتنى لرأيت امرأة ذائبة مدبرة لا تصلح لشأن من شئون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلا كما بقى من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك ، أن أراك بجانب فراشى فى ساعتى الأخيرة ؛ لأعتذر لك عن ذنبى الذى أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفنى وأذهب بها إلى قبرى .

« ما أنا بخائنة يا أرمان ولا خادعة ، فإن الرسالة التى رأيتها فى يدى يوم عدت إلىَّ من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننت ، بل رسالة أبيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة ؛ وهذا نصها الذى لا يزال عالقًا بذهنى حتى الساعة :

« سيدتى :

« أريد أن أقابلك غدًا فى منزلك فى الساعة العاشرة صباحًا فى شأن خاص بى وبك ، وأريد ألا يكون « أرمان » حاضرًا تلك المقابلة ولا عالمًا بها ، ولا بأنى أرسلت هذه الرسالة إليك ، ولى من حسن الرأى فيك ما يطمعنى فى أن يكون ما سألتك إياه سرًّا بينى وبينك حتى نلتقى . والسلام »

دوفال

« فلما قرأتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرت بما وراءها ، بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنك امتنعت عليه حتى يئس منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابى ؛ فحدثتنى نفسى أن أرفض مقابلته ، وأن أكاشفك بكل شىء ، ثم استحييت من نفسى ، وأكبرت أن يعتمد علىَّ رجل شريف كأبيك فى كتمان سر بسيط كهذا السر فلا يجدنى عند ظنه ، وطمعت فى أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله منى ، فكتمتك أمر الرسالة ، وكتمتك ما فى نفسى منها . ولم أكن كاذبة فى شكاتى وألمى حينما قلت لك فى تلك الليلة : « إننى لا أستطيع البقاء بجانبك » وسألتك أن تقودنى إلى مخدعى ؛ فقد قضيت فى فراشى بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها فى جميع ما مر بى من ليالى الهموم والأحزان حتى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته ، ولكنى خفت أن يزورنى فيراك عندى فأصغر فى عينيه ، ولا أشد علىَّ من ذلك .

« وما هى إلا لحظات قليلة حتى وصل إلى بوجيفال فى الموعد الذى ضربه فى كتابه ، فاستأذن علىَّ فأذنت له ، فدخل فرأيت فى عينيه جمرة من الغضب تلتهب التهابًا ، فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يحينى بيده ، ولا بلسانه .

« وكان أول ما استقبلنى به قوله : ماذا تريدين أن تصنعى بولدى أيتها السيدة ؟ وظل ناظرًا إلىَّ نظرًا جامدًا ساكنًا لا يطرف ، ولا يختلج ! فعجبت لمدخله الغريب ، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضت فى نفسى امتعاضًا شديدًا حتى كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : تذكر يا سيدى أنك فى منزلى ، وأننى لم أدعك إلى زيارتى ، بل أنت الذى دعوت

نفسك بنفسك .

« ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه وبقدمه حتى دنا منى ، وألقى علىَّ تلك النظرة التى اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها فى طريقهم على وجوه النساء العاهرات ، وقال : لقد أنفق ولدى عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان فى يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك ، وقد أرسلت إليه فوق طاقتى ، فلم يبق فى استطاعته أن يمدك بأكثر مما أمدك ، ولا فى استطاعتى أن أستنزل له من السماء ذهبًا يمطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم . أما أنا فإنى فى حاجة إلى ولدى ؛ لأنى لم أرزق ولدًا سواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التى تملكينها لا يضيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مآرب الحياة .

فسرت كلماته فى نفسى سريان الحمى فى عظام المحموم وخيل إلىَّ أن هذا الماثل أمامى لا يحدثنى ، إنما يجرعنى السم بيده تجريعًا ، وشعرت بذلة لم أشعر بمثلها فى يوم من أيام حياتى ، إلا أننى تجلدت واستمسكت ورددت نفسى على مكروهها ، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : لا يا سيدى ، نعم إننى أحب ولدك ، ولكنى لا أطمع فيه ، ولو كان الذى يعنينى منه الطمع فى ماله لفارقته منذ ثلاثة شهور ، أى منذ خلت يده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقته قبل ذلك لأن الذين لا يزالون يساوموننى فى نفسى من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغدًا . على أن ولدك لم ينفق علىَّ من هذا المال الذى تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفسه ؛ ولو استطعت أن

أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكنى كنت أضن به أن يداخل نفسه ما يريبها أو يؤلمها ؛ فقبلت منه هداياه الصغيرة التى كان يقدمها إلىَّ من حين إلى حين إرعاء عليه ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدى ، كما تقول ، لأصبحت غنية موفورة ، لا أحمل همًّا من هموم العيش ، ولا أعانى من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم !

« فإننى ، لو تبينت أمرى ، امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلاى ومركبتى وأثاث بيتى ، وليتها كانت خالصة لى ، فقد امتدت يد الضرورة إليها منذ عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سلعة فى يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتى به الغد . وإن أبيت إلا أن تعرف ذلك بنفسك فسأطلعك على ما كتمته عن الناس جميعًا حتى عن ولدك » . ثم قمت إلى خزانة أوراق ، فجئته منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعت من جواهرى وخيولى وأثاث بيتى ورهن مارهنت منها ، فظل يقلبها بين يديه ساعة ، ويتأمل فى تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إلىَّ مطرقًا صامتًا لا يقول شيئًا . ومد يده إلى كرسى بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمدًا برأسه على عصاه ، وقد هدأت فى نفسه تلك الثورة التى كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله ، وطارت عن وجهه تلك الغبرة السوداء التى كانت تظلله من قبل .

فعدت إلى حديثى معه أقول : « على أننى يا سيدى غير شاكية ولا ناقمة ، فقد مر بى من نُوَب الأيام وأرزائها ما محا من نفسى كل شهوة من شهوات الحياة وأنسانى جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالى بما تأتى به الأيام ، وسواء لدىَّ الفقر والغنى ، والحَلْى والعطل ، وسكنى القصر وسكنى الكوخ ، وركوب المَرْكَبَة وركوب النعل .

« وكل ما أرجو من حياتى وأضرع إلى الله وإليك فيه ، أن أرى أرمان

يقاسمنى همَّ الحياة وبؤسها ، ويعيننى على شدتها ولأوائها حتى يقضى الله فى أمرى بما هو قاض .

« فإن كان فى الأجل فسحة قضيتها فى شكرك وحمدك ، والإخلاص لك فى سرى وعلنى ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به فى ساعتى الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضارعة مبتهلة أن يبارك لك فى نفسك ، وفى أهلك ، وأن يسبل ستره الضافى عليك فى حاضرك ومستقبلك !»

« ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت فى تلك الساعة عن أن أملك من دموعى ما كنت مالكة من قبل ، فظللت أبكى ، وأقول :

« رحماك يا مولاى ، إننى امرأة بائسة مسكينة قد قضت علىَّ بعض ضرورات العيش فى فاتحة حياتى أن أقف على حافة تلك الهوة التى يقف على رأسها النساء الجائعات ؛ فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت نفسى على الرضا بتلك الحياة التى قدرها الله لى فلم أستطع ، فأصبحت فى منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعم بعيش النساء الشريفات ، ولا ميتة القلب أسعد سعادة الفتيات الساقطات . وقد وجدت فى ولدك الرجل الوحيد الذى أحبنى لنفسى ، ومنحنى من وده وإخلاصه ما ضن به علىَّ الناس جميعًا ، فأنست به أنسًا أنسانى سقوطى وعارى ، وحبب إلىَّ الحياة بعدما أبغضتها وبرمت بها ، وكدت أقضى على نفسى بالخلاص منها ، فلا تحرمنى جواره ، ولا تفرق بينى وبينه ؛ فإنك إن فعلت أشقيتنى وبرحت بى ، وملأت حياتى همًّا وكمدًا ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبنى سعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلى .

« ماذا يكون مصيرى غدًا إذا أصبحت وحيدة منقطعة فى هذا العالم لا صديق لى ولا معين ؟ أأعود إلى حياتى التى أبغضها وأخشاها ؛ فأعود إلى

جرائمى وآثامى ؟ أم أقتل نفسى بيدى فرارًا من شقاء الدنيا وبلائها ؛ فأختم حياتى بأقبح مما ختم امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فامدد إلىَّ يدك البيضاء ، وأنقذنى من هذه الهوة العميقة التى لا يستطيع أحد أن ينقذنى منها سواك .

« أنا أعلم أنك فى حاجة إلى ولدك ، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكنى أعلم أنك شفوق رحيم لا تأبى أن تتصدق على امرأة مريضة بائسة مثلى بساعات من السعادة تتعلل بها فى مرضها الذى تكابده حتى يوافيها أجلها . لا أسألك ياسيدى مالاً ولا نسبًا ولا عرضًا من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معى ؛ فإن فى بقائه بقاء حياتى وسعادتى ، فتصدق بهما علىَّ إنك من المحسنين» .

« وهنا شعرت كأنه يتحرك فى كرسيه فخفق قلبى خفقانًا شديدًا ، ثم رفع رأسه ونظر إلىَّ نظرة أهدأ نارًا وأقصر شعاعًا من نظرته الأولى ، وقال : «ومن أين تعيشان ؟»

« قلت : عندى بقية من جواهرى وحلاى سأبيعها وأعيش بثمنها معه فى زاوية من زوايا باريس عيش الفقراء المُقلِّين ، لا يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نغنى بها عن كل سعادة فى هذا العالم وهناء »

« قال : ذلك هو الشقاء بعينه ؛ فإن الحب نبات ظلى تقتله شمس الشقاء الحارة ، وكل سعادة فى العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى ظلاله فهى كاذبة لا وجود لها فى سوانح الخيال .

« أنتما اليوم سعيدان لأن فى يدكما مالاً تعيشان به ، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهَضْبَة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فإذا

خلت يدكما من المال ، وحرمتما هذا النعيم الذى تنعمان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب ولذائذه ، وسرى إلى نفسيكما الضجر والملل ، وربما امتدت تلك السآمة بينكما إلى أبعد غايتها .

« إن للحب فنونًا من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تنال منه الصروف والغِيَر ، ولو عقلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطائرة ، تأتى به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب به المثل مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها ، فإن النفس تطلب حياتها وبقاءها ، قبل أن تطلب لذائذها وشهواتها !

« أنا أعلم من شأن ولدى يا سيدتى ما لا تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التى تظنين ، وهو فتى فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تغنى عنه ولا عنك شيئًا . وما أنا بذى ثروة طائلة أستطيع أن أحفظ له بها زمنًا طويلاً هذا العيش السعيد الرغد الذى يعيشه اليوم فى باريس ، فلم يبق بين يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه . واسمحى لى يا سيدتى أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون علىَّ وعليه من أن يقول الناس إن خليلة أرمان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التى أهداها إليها عشاقها الماضون لتنفق ثمنها عليه .

« سامحينى يا بنيتى ، واغتفرى لى حدتى وخشونتى ، فإن شديدًا جدًّا على والد شيخ مثلى أن يرى ولده الذى وضع فيه كل آمال بيته يهوى أمام عينيه فى هذه الهوة السحيقة التى لا قرار لها دون أن يطير قلبه خوفًا وهلعًا .

« إنه مذ عرفك نسينى ونسى أخته ، فلا يذكرنى ولا يذكرها ، وقد

مرضت منذ شهور مرضًا مشرفًا فكتبت إليه أن يأتى ليعودنى فلم يفعل ، ولم يرد على كتابى ، أى أننى كنت على وشك أن أموت ولا أراه ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبرى بحسرة لم يحمل مثلها فى صدره راحل عن الدنيا من قبلى !

« أنت صادقة يا سيدتى فى قولك إنه لم ينفق عليك جميع ما كان بيده من المال ؛ لأننى علمت بالأمس أنه قامر منذ عهد قريب ، وخسر فى مقامرته كثيرًا ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئًا من ذلك فما يؤمننى إن أنا تركته فى هذا البلد ألا يستمر فى هذه الغواية الجديدة التى خطا الخطوات الأولى فى طريقها ، ولا يخسر فى بعض مواقفه خسارة عظمى لا أجد لى بدًا من أن آخذ بيده فيها ، فأقدم إليه ذخر شيخوختى ، ومهر ابنتى ؛ فنهلك نحن الثلاثة فى يوم واحد ؟

« من أين لك يا بنيتى أنه إن طال عهده بك لا يملُّك ، ولا تمتد عينه إلى امرأة سواك ، فتكون فجيعتك فيه غدًا شرًّا من فجيعتك فيه اليوم ؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعًا يومًا من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولى ؛ حياة الأنس والاجتماع ، والضوضاء واللجب ، وهو فتى غيور مُستَطار ، فربما أنفت نفسه أن يزاحمه فيك مزاحم ، وربما امتدت يده بشرٍّ إلى ذلك الذى يزاحمه ، فتنازلا ، فأصابته من يد منازله ضربة تقضى على حياته وتفجعنى فيه ؟

« كيف يكون موقفك يا سيدتى غدًا إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاكل المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلام نفسك ولواعجها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟

« ثم ارتعش ارتعاشًا شديدًا ، وظل نظره حائرًا مضطربًا كأنما يخيل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذى يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ، ونظر إلىَّ نظرة هادئة مملوءة عطفًا وحنانًا ، وأنشأ يقول :

« مرغريت ، أنت أعظم فى عينى مما كنت أظن ، وأكرم نفسًا من أولئك النساء اللواتى يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً فى أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل فى فضليات النساء ، ولو قسِّم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاها .

« لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حيًّا كتمانك أمر الكتاب الذى أرسلته إليك ، واحتفاظك بسره فى ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكوتك وإغضاءك — وأنت فى منزلك ، وموضع أمرك ونهيك — أمام حدتى وخشونتى وجنون غضبى ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدى — من حيث لا يعلم — وفاءً له وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها !

« لقد كانت ضحيتك التى قدمتها لولدى بالأمس عظيمة جدًّا ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمى ضحية أعظم منها لابنتى ولا معتمد لى أعتمد عليه فى تلبية رجائى عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

« لقد تركت « سوزان » ورائى تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض ؛ لأن خطيبها الذى تحبه حبًّا جمًّا قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالاً عظيمًا ، ووصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات كثيرًا ، وتبكى كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلمت موضع دائها ، وذهبت فى اليوم الثانى إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتى ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لى سببًا غريبًا لك فيه يا سيدتى بعض الشأن ، فإن أذنت لى حدثتك حديثه ».

« فخفق قلبى خفقانًا شديدًا ، وأحسست بالشر يدنو منى رويدًا رويدًا ، إلا أننى تماسكت ، وقلت له : نعم آذن لك يا سيدى . لقد أجابنى الرجل على سؤالى بقوله : إن أسرتى أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلها من جميع وجهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التى يعيشها ولدك فى باريس ، إنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومسًا معروفة هناك معاشرة تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعًا ، ولا أسمح لنفسى أن يكون مثل ولدك فى تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وفُسولتها (١) صهرًا لولدى ولا عارًا على بيتى . فاستقبلت خشونته وجفاءه بصبر واحتمال ؛ لأن الخوف على ابنتى شغلنى عن الغضب لنفسى ، وقلت له : أواثق أنت مما تقول ؟ فأدلى لى بما أقنعنى ، فلم أر بدًّا من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبت فى أمر الخطبة شيئًا حتى أسافر إلى باريس وأعود منها .

« ذلك ما حملنى على المجئ إلى باريس . وهذه هى قصتى التى جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعًا حتى عن ولدى أرمان ؛ فانظرى ماذا تأمرين ؟ ».

« وهنا أطرق برأسه طويلاً ، ثم رفعها ، فإذا عبرة تترقرق فى عينيه ، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسيت مصابى بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة لا يقول لى شيئًا ، ولا أدرى ماذا أقول، حتى هدأ ثائره قليلاً، فمد يده إلى يدى فأخذها بين ذراعيه، وعاد إلى حديثه يقول :

« مرغريت ، إن حياة ابنتى بين يديك ، فامنحينى إياها تتخذى عندى

(١) الفُسولة : الانحطاط وضعف المروءة .

يدًا لا أنساها لك حتى الموت .

« إننى لا أستطيع أن أراها تموت بين يدى . ولو تم ذلك لمتُّ على أثرها حزنًا وكمدًا ، وضمنا فى يوم واحد قبر واحد ؛ لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقيًا فى نفسى حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى فى ابنتها وصورتها الباقية عندى من بعدها .

« إننى أحبها حبًّا جمًّا ، ولا أستطيع أن أراها فى ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ؛ فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت !

« إنك لا تعرفينها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها ، ولفديتها بما تستطيعين رأفة بها وإشفاقًا عليها .

« إنها جميلة جدًّا ، وبيضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طهارة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحى لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة ؛ فإنها لا تستحق الشقاء .

« إنها اليوم تعيش بالأمل الذى أودعته قلبها يوم سفرى ، فإن عدت إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل والقضاء النازل !

« إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصة فى حبه إخلاصًا عظيمًا ، فاصنعى ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحى حبك من أجله ، ومن أجل مستقبله ، فإلا تفعلى ذلك من أجله ، فافعليه من أجلى .

« لقد قلت لى إنه الرجل الوحيد الذى أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبادليه هذا الحب ، بل كونى خيرًا منه فيه ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيدًا من بعدك ، وأنك قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخًا حزينًا . وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط على كرسيه بين يدى ، وقال بنغمة المشرف المحتضر :

« ارحمينى يا مرغريت ، واشفقى على ضعفى وشيخوختى ، وتصدَّقى علىَّ بمستقبل ولدى ، وحياة ابنتى .

« ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئًا ، فألقى رأسه على كرسيه الذى كان جالسًا عليه وانفجر باكيًا .

« آه لو رأيتنى يا أرمان فى موقفى هذا ، ورأيت لوعتى وتفجعى ودموعى المنهمرة على خدىّ انهمار الدِّيمة الوَطْفاء رحمة بأبيك وإشفاقًا عليه !

« لقد كان يتكلم فتسيل مدامعى مع حروفه وكلماته ، كأنما هو ينشد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها !

« إن العظيم عظيم فى كل شىء حتى فى أحزانه وآلامه، فلقد كان يخيل إلىَّ وأبوك يبكى بين يدى وينتحب أن كل دمعة من دموعه تستنزل غضب الله على الأرض ، وكل زفرة من زفراته تلتهب بها آفاق السماء .

« لقد أكبرت فى نفسى جدًّا أن يجثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدى فتاة ساقطة مثلى ، واستحييت من ذلك حياء تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمى فَسِخْتُ فيها أبد الدهر .

« وبينا هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفى مصابه ، وفى قصته التى قصها علىَّ ، وفى الشأن الذى لى فيها ؛ فعلمت أنى قد أصبحت شؤمًا على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أبيها وابنها وابنتها ، فثقلت نفسى علىَّ ، وسمج منظرها فى عينى ، حتى خيل إلىَّ أنها لو كانت حاضرة بين يدى لرميت بها من حالق إلى حيث لا يجمعنى وإياها مكان بعد اليوم .

« ثم قلت فى نفسى : إن حياتى الماضية التى قضيتها فى الشرور والآثام قد قطعت علىَّ طريق الشرف ، فلا حق لى فى أن أطمع فى حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذى اقترفته فى ماضىَّ قد أتمته

وحدى ، فلا بد لى أن أستقل بعبئه دون أن ألقيه على عاتق أحد غيرى ، فإن كان مقدرًا علىَّ أن أموت موت النساء الساقطات ؛ فذلك لأننى امرأة ساقطة ، أو ألاقى فى مستقبل حياتى شقاءً وآلامًا ؛ فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضى وثمرته الطبيعية .

« هنا ذكرتك يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أنا التى سأتولى قتل نفسى بيدى ؛ لأن الطريق التى لا طريق غيرها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته ، أن أقاطعك وأغاضبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة . وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرف عنى انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل فى ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسى بين فراقك وغضبك فى آن واحد . وذكرت أن لا بد لى متى فارقتك أن أعود إلى حياتى الأولى التى أبغضها وأمقتها ؛ لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبى الذى أذنبته إليه حتى اليوم ، ولأنى فى حاجة إلى بسطة من العيش أستعين بها على معالجة مرضى ووفاء دينى . فدارت هذه الخواطر فى رأسى ساعة ، وطالت دورتها حتى كادت تغلبنى على أمرى ، ثم وقع نظرى على وجه أبيك المخضل بدموعه فتجلدت وجمعت أمرى ومضيت قدمًا لا ألوى على شىء مما ورائى .

« لقد كان شديدًا علىَّ جدًا أن أفارقك يا أرمان ، ولكن كان أشد علىَّ منه أن أرى أباك يبكى بين يدى ، وأن أكون سببًا فى موت أختك أو شقائها .

« إننى أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته فى النفوس ، ولقد كان يخيل إلىَّ وأبوك يحدثنى عن أختك وشقائها أننى أراها من خلال دموعى طريحة فراشها ، وهى تمد يدها إلىَّ ضارعة متوسلة وتقول : أنقذينى يا سيدتى وارحمى ضعفى وشبابى ، فأجد لكلماتها من الأثر فى نفسى ما لا يستطيع أن

يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأنى .

« إننى حرمت فى مبدأ حياتى السعادة الزوجية وهناءها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يهيج حزنى ، ولا يستثير كامن لوعتى مثل أن أرى بين الناس فتاة محرومة السعادة مثلى .

« إننى أحب وهى تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ، فلأمت أنا فداء عنها ؛ لأنها أختك ، ولأنها لم تقترف فى حياتها ذنبًا تستحق بسببه الشقاء .

« وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هانئة من بعدى ، وتراءى لى شبحها ، وهى لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل ، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبى فرحًا وسرورًا وهان علىَّ كل شىء فى سبيل غبطتها وهنائها .

«نعم إن الضربة التى سأستقبلها شديدة جدًا، لا يقوى عليها قلبى،ولكنى سأحتملها بصبر وسكون ؛ لأن أباك سيصبح راضيًا عنى ، ولأنك ستعلم فى مستقبل الأيام سر تضحيتى ، فتحبنى فوق ما أحببتنى ! ولأن أختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبها ؛ وسيكون اسمى بين الأسماء التى تدعو لها الله فى صلواتها بالرحمة والرضوان .

« جاءت الساعة التى أقول فيها لأبيك كلمتى الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لى بما لقيت فيها من الآلام ماضى ذنوبى وآتيها ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدى !

« قمت من مكانى كأننى أنتزع نفسى من الأرض انتزاعًا ، ومشيت إلى أبيك كما يمشى الحائن (1) إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت

(1) الحائن : الذى حان هلاكه .

بيده ، فاستفاق من غشيته ونظر إلىَّ ذاهلاً مشدوها ، فقلت له : أتعتقد يا سيدى أننى أحب ولدك ؟ قال : نعم . قلت : حبًّا هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتمل ؟ قال : نعم . قلت : وأن هذا الحب هو كل آمالى وسعادتى ، وما أملك فى الحياة ؟ قال : نعم يا بنيتى . قلت : قد ضحيته من أجل ابنتك فعد إليها وبشرها بسعادة المستقبل وهنائه ، وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، و لم ترك فى يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك ، تموت الآن من أجلك ، فاسألى الله لها الرحمة والغفران .

« فتهلل وجهه بشرًا وسرورًا ، و لم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إلىَّ ، فأنسانى سروره واغتباطه ألم الضربة التى أصابت كبدى ، واستحال حزنى واكتئابى إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم ير فى وجهى فى تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واغتباطه .

« وهنا شعرت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا « برودنس » تشير إلىَّ بيدها . فذهبت إليها فأعطتنى كتابًا جاء به البريد فقرأت عنوانه ، فإذا هو بخط المركيز « جان فيليب » فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، ووقع فى نفسى أن الله قد أوحى إلىَّ بما أفعل . فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبى أخاف أن يعرض لى فى طريقى ما يزعزع عزيمتى ، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه فى بطاقة صغيرة هذه الكلمة : « سأتعشى عندك الليلة . » ثم أعطيتها برودنس لتلقيها فى صندوق البريد .

« وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته ، فقلت له : إن أرمان لا يعلم شيئًا من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين تلقاه ، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لا يشك فى أنى صاحبة الرأى فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غدًا أننى قد اتصلت برجل غيره ؛ فيرى أننى قد خنته وغدرت

بعهده ، فلا يجد له بدًا من أن يسافر معك قاطعًا رجاءه منى ، وربما تألم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيبلى حبى فى قلبه ، كما يبلى كل حب فى كل قلب .

غير أن لى عندك طلبة واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لى بها ؟ قال : نعم أسمح لك بكل شىء . قلت : إنى مريضة مشرفة ، وإن العلة التى أكابدها كثيرًا ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان فى اليوم الذى تعلم فيه أننى قد أصبحت على حافة قبرى أن يأتينى لأراه وأودعه الوداع الأخير ، وأعتذر له عن ذنبى الذى أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة .

« فنظر إلىَّ نظرة دامعة ، وقال : وارحمتاه لك يا بنيتى ، إننى أعدك بما أردت ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء . ثم حاول أن يعرض علىَّ شيئًا من المعونة فأبيت ذلك إباء شديدًا ، وقلت له : إننى لم أبع نفسى يا سيدى بيعًا ، بل وهبتها هبة . فأخذ رأسى بين يديه وقبلنى فى جبينى قبلة كانت خير جزاء لى على تضحيتى التى ضحيت بها وودعنى ومضى .

« فما ابتعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتى ، فجمعت ثيابى وما بقى لى من حلاى ، ووضعتها فى حقيبتى ، وسافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبت إلى منزلى هناك فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذى تعلمه . والله يعلم كم سكبت من الدموع ، وكم وقف قلبى بين كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتممته ، فأعطيته حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم ذهبت للوفاء بعهد المركيز .

« أما حياتى مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئًا سوى أن أقول لك : إنه لم ير فىَّ المرأة التى كان يتخيلها ، ويمنى نفسه بها ، و لم أر فيه

الرجل الذى يؤنسنى ويخلط نفسه بنفسى ؛ فافترقنا ، فأصبحت لا أعرف لى فى العالم صديقًا صادقًا ، ولا كاذبًا .

« هذه قصتى يا أرمان كما هى ، وهذا ذنبى الذى أذنبته إليك . فهل ترى بعد ذلك أنى خائنة أو خادعة ؟

« قلبى يحدثنى أننى سأموت قبل أن أراك ، وأملى يخيل إلىَّ أن ما فى نفسك من الموجدة علىَّ لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وأنك ستعود إلى باريس فى الساعة التى ينعانى لك فيها الناعى ؛ لتزور قبر تلك المرأة المسكينة التى تولت سعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا فارغة اليد من كل شىء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها .

« فهأنذا أكتب هذه المذكرات ، وأتركها لك عند برودنس لعلك تقرأها فى مستقبل الأيام ، فتنظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة ، فتصدِّق ما فيها وتعفو عنى ، فينير عفوك ظلمات قبرى ، ويؤنس وحشة نفسى . »

٣ يناير ١٨٥١

« أين أنت يا أرمان ؟ أنت بعيد عنى جدًّا ، بعيد بجسمك وبقلبك ؛ لأنك لم تهمل كتابى الذى كتبته لك ودعوتك فيه لزيارتى وسماع اعترافى الأخير ، إلا لأن ما كان فى نفسك من العتب والموجدة علىَّ قد استحال إلى نسيان وإغفال ، فأصبحت لا تذكرنى كما يذكر المحب حبيبه ، ولا تعطف علىَّ كما يعطف الصديق على صديقه، فليكن ما أراد الله ولتدم لك تلك السعادة التى تنعم بها بين أهلك وقومك ، فإنى غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شيئًا ، ولا حاملة لك فى نفسى إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما تأتى ، وما

تدع .

« لى عدة أيام لم أر فيها أحدًا من الناس ؛ لأن الطبيب منعنى من الخروج ، ولأن أصدقائى الذين كانوا يعرفوننى فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتى بإرسال بطاقاتهم إلىَّ مع خادمتى ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحًا وسرورًا ، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين !

« ولا أدرى لِمَ لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا زياراتهم ؟ فإن كانوا يظنون أنهم سيروننى بينهم فى مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلح للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدوننى من قبل ، فهم فى ظنهم مخطئون .

« لقد أحسنوا فيما عملوا ؛ فإننى أصبحت لا آنس بأحد فى العالم سوى نفسى ، ولا آنس بنفسى إلا لأنى أستطيع متى خلوت بها أن أسائلها عنك فتذكرنى بك وبتلك الأيام السعيدة التى قضيتها معك فى بوجيفال ، وذكرى تلك الأيام هى العزاء الباقى لى عن جميع ما خسرت يدى .

« ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التى أكابدها ، فلقد تمر بى ساعات أعتقد فيها أن الألم الذى أكابده إنما هو ألم النزع ، وأننى فى الساعة الأُخيرة من ساعات حياتى ، فإذا استفقت قلت فى نفسى : هذا ألم المرض ، وقد عجزت عنه ، فمن لى باحتمال ألم الموت ؟

« على أن نفسى تحدثنى أحيانًا أنه إن قدر لى أن أراك بجانبى فى يوم من الأيام برئت من مرضى ، وتراجعت نفسى وعدت إلى راحتى وسكونى ، فهل يقدر لى الله ذلك ؟

« لا أعلم ؛ فالمستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد. »

٢٤ يناير ١٨٥١

« لم أفارق سريرى منذ أيام طوال إلا صباح هذا اليوم ، فجلست قليلاً بجانب نافذتى ، وأشرفت منها على الحياة العامة ، فوقع نظرى على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين فى طريقهم لاهين مغتبطين ، ولم أر بينهم من رفع نظره إلى نوافذ غرفتى مرة واحدة كأنما يمرون ببيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل .

« ما أشد وحشتى ! وما أضيق صدرى ! وما أثقل هذا الجدار الذى يدور حولى !

« لا أطيق النظر إلى سريرى ؛ لأن نفسى تحدثنى أنه سيكون عما قليل سلم قبرى ، ولا الوقوف أمام مرآتى ؛ لأنها تحدثنى عن نفسى أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشراف من نافذتى لأنها تذكرنى بحياتى الماضية السعيدة التى حيل بينى وبينها ، فأين أذهب وكيف أعيش ؟

« لا آكل إلا طعامًا واحدًا ، ولا أرى إلا منظرًا متكررًا ، ولا أسمع إلا صوت طبيبى وخادمتى حينما يسألها عنى صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسئمت ، وأصبحت أشعر أن نفسى سجينة فى صدرى ، سجن جسمى فى غرفتى ، وربما مرت بى ساعات يقف فيها ذهنى عن التفكير وخاطرى عن الحركة ، وينقطع ما بينى وبين يومى وأمسى وغدى وكل شيء فى الحياة حتى نفسى .

« السعال يهدم أركان صدرى هدمًا ، والنوم لا يلمُّ بعينى إلا قليلاً والطبيب يعذبنى بمشارطه وضماداته (١) عذابًا أليمًا ، وكل يوم أشعر أن

(١) المشارط : جمع مِشرَط وهو ما يُشرط به الجلد لاستفراغ الدم . والضِّمادات : العصابات توضع على العضو المجروح أو المكسور .

نفسى يزداد ضيقًا ، وبصرى يزداد ظلمة ، وأن الحياة تبعد عن ناظرى شيئًا فشيئًا ، حتى أكاد أحسبها شبحًا من الأشباح النائية فمتى ينقضى عذابى ؟!»

٣٠ يناير ١٨٥١

« سمعت صباح اليوم لجبًا كثيرًا فى فناء المنزل ، فسألت برودنس : ما الخبر ؟فذهبت وعادت إلىَّ تبكى ، وتقول : إنهم يحجزون أثاث المنزل يا سيدتى . فقلت : دعيهم يفعلوا ما يشاؤون . وما هى إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتى مندفعين متصايحين ، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احترامًا لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوته إشفاقًا على المريضة المعذبة . فمشوا يسجلون كل ما وقع نظرهم عليه ، وخفت أن يسجلوا دفتر مذكراتى فأشرت إلى بردونس أن تخفيه عنهم ففعلت ، فحمدت الله على ذلك . ثم وصلوا إلى سريرى فطلب أحد الدائنين حجزه ، وقال إنه ثمين ، سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه الحاجز أن القانون يستثنى الأسرة وفراشها ، وألقى فى أذنه كلمة أحسب أنى سمعته يقول فيها : إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها ! ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتى حارسًا لا يفارقه ليله ونهاره .

« فكتبت إلى « الدوق موهان » . وهى أول مرة كتبت إليه فيها أستغفره ذنبى الذى أذنبته إليه ، وأشكو له ما نالته يد الأيام منى وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عليه أن يأتى لزيارتى ، ففعل فبكى عندما رآنى ، ولا أدرى هل بكانى أو ذكر عند رؤية مصرعى مصرع ابنته الأخير فبكاها ، ثم قضى بجانب فراشى ساعة مطرقًا صامتًا لا يحدثنى إلا قليلاً ولا يذكر الماضى بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك فى يد بردونس ضمة أوراق ، استبقت بعضها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر .

« لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن الطبيب ما زال يلح على جسمى بالفَصْد حتى أوهاه واستنزف دمه ، فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم . »

٢ فبراير ١٨٥١

« إن هذا اليوم أسعد أيامى وأهنؤها ، فقد وصل إلىَّ من أبيك كتاب هذا نصه :

« سيدتى :

« إنى أتوجع لك توجعًا شديدًا ، فقد علمت بالأمس من بعض الوافدين إلى « نيس » أنك مريضة مرضًا شديدًا منذ شهرين ، وأنك لا تخرجين من منزلك إلا قليلاً ، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيرًا بما قاسيت من الآلام والأوجاع فى سبيلى وسبيل ابنتى . وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذى قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يومًا وأصبحت هانئة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وإنها وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصة التى تعلمها شيئًا فقد قلت لها : إن بعض الناس — ولم أسمه لها — قد ضحى بنفسه وبسعادته فى سبيل سعادتك وهنائك، فلا تتركى الدعاء له فى جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة ، فهى لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها .

« أما الكتاب الذى أرسلته إلى أرمان فى أوائل الشهر الماضى فلم يصل إليه إلا اليوم ؛ لأنه منذ فارقك وسافر إلى « نيس » لم يستطع البقاء فيها إلا بضعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرق حزينًا مهمومًا من أجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التى يقيم فيها ، فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفتها منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتابًا أطلعه فيه على قصتك ، وأقول له إننى

لا أرى مانعًا يمنعنى بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيها ما شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك فى عهد قريب .

« أرسلت إليك مع كتابى هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبليها منى ، وأن تنظرى إليها بالعين التى تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذى يحبها ويجلها ، فإن فعلت أحسنت إلىَّ بذلك إحسانًا عظيمًا .

« لى الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك فى مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .

« دوفال »

« فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور فى قلبى ، لم أشعر بمثلها مذ فارقتك حتى اليوم ؛ فقد علمت أن سوزان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنك لا تزال تحبنى ، وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتبك ، وأننى سأراك عما قليل ، وتلك آمالى فى الحياة .

« أما الهَدية التى أرسلها إلىَّ أبوك فقد نظرت إليها بالعين التى أرادها ؛ فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إلىَّ . »

٣ فبراير ١٨٥١

« استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ؛ لأن السرور الذى تركه كتاب أبيك فى نفسى شغلنى عن كل شىء حتى عن ألمى ، وفى الصباح قال لى طبيبى إنك اليوم خير منك فى كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرجى فى مركبتك إلى بعض المتنزهات ساعة ، ثم عودى .

« فخرجت إلى غابات « الشانزلزيه » فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متهللين مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة محرومة منها مثلى ، فلم أحسدهم على نعمتهم التى آتاهم الله ، بل

دعوت لهم ببقائها ودوامها ، إلا أننى حزنت على نفسى حزنًا شديدًا حينما رأيت أن كثيرًا من معارفى الماضين قد مروا على مقربة منى ، و لم يعرفونى ، ورأيت أحدهم ينظر إلىَّ ، وقد مر بجانب مركبتى نظر المتخيل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عنى ومضى لسبيله ، وقد استقر فى نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التى يعرفها .

« فعلمت أنى قد تغيرت تغيرًا عظيمًا ، وأن مرآتى ما كانت تكذبنى حينما تحدثنى عن نحولى واصفرارى ، واستحالة صورتى ، بل صدقتنى كما صدقنى الناس .

« ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجابها فعدت إلى منزلى ، وقد زال من نفسى ذلك الخاطر الذى أحزننى ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أننى سأراك عما قليل .

« وسينقضى بلقائك عهد بؤسى وشقائى . »

٧ فبراير ١٨٥١

« ما أحسب أنك مدركى يا أرمان ، فقد بلغت بى العلة منتهاها وأصبحت لا أجد الراحة فى قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع فى جميع أعضائى ومفاصلى ، وكأن حجرًا من الأحجار العاتية ممتد على صدرى يمنعنى التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريرى إلى مكتبى ، فأمرت برودنس أن تأتينى بمحبرتى ودفترى حيث أنا ، فجاءت بهما إلىَّ ، فأنا الآن أكتب إليك وأنا فى فراشى ؛ فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟»

١٠ فبراير ١٨٥١

« أملى فى الحياة ضعيف جدًا ، ها هو الموت يدنو منى رويدًا رويدًا ، لم

تأت إلىَّ حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أنى سأموت قبل أن أراك ، إن الموت مخيف جدًا يملأ قلبى رعبًا وهولاً ، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدى تلك الحفرة الموحشة المظلمة التى لا أنيس لى فيها ولا سمير ، لم أتمتع بالحياة طويلاً وكانت كل سعادتى فيها آمالاً وأحلامًا ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئًا من آمالى وأحلامى .

« ما أحلى الحياة وأمرَّ فراقها ، لم أنل منها طائلاً ، ولكنى لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الذين يُعمَّرون فى الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيبًا يعيشون به بعد موتهم زمنًا أطول مما عاشوا . أما أنا فإنى سأموت فى ربيع حياتى ، وسيموت ذكرى فى الساعة التى أموت فيها ، وكأنى لم أعش فى الحياة يومًا واحدًا ، وا أسفاه على ما فرطت فى حياتى الماضية ، إننى أدفع اليوم ثمن ذنوبى وآثامى أضعافًا مضاعفة !

« لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة ، ولا أمدُّ عينى إلى ما تقصر عنه يدى فلم أفعل ، فها أنذا لا أسيغ المضغة ولا الجرعة ولا أجد السبيل إلى العيش على أية صورة كانت .

« أهكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتى قريب ، ولا يبكى علىَّ صديق ؟! أهكذا تنتهى حياتى فى الساعة التى أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامى وآمالى ؟!

« آه لو يمهلنى الموت قليلاً فربما كنت على مقربة منى ، فأنظر إليك نظرة واحدة ثم أموت . لا أمل لى فى ذلك ؛ فقد رأيت طبيبى صباح اليوم يلقى فى أذن خادمتى وهو خارج من عندى كلمة ، فسألتها عنها فدارت حولها و لم تقلها ، وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة . لا أكاد أبصر شيئًا مما حولى حتى بياض الصحيفة التى فى يدى . كنت قبل اليوم أنفث الدم وحده ، والآن

أنفث أفلاذ رئتى مصبوغة بالدم .

« من لى بكأس من السم أشربها جرعة واحدة فأستريح من هذا العذاب الذى يساورنى ، ولكن أى فائدة لى من ذلك ، وها هو ذا الموت يمشى إلىَّ بأسرع مما أمشى إليه ؟ رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت وحدك العالم بمقدار ألمى وعذابى ، فارحمنى وهون علىَّ أمرى ، وامنحنى إحدى الراحتين .

« لا أرى شيئًا ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدى !»

١٤ فبراير ١٨٥١

« لا تحزن علىَّ كثيرًا بعد موتى يا أرمان ، فحسبى منك أن تذكرنى ولا تنسانى ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائى ؛ فألقى فى نفسى منذ الأمس برد الراحة واليقين ، ومحا من قلبى جميع مخاوفه ووساوسه ، فعلمت أنه قد رضى عنى ، وغفر لى ذنبى ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده ، ولا أجزع من الألم ، ولا أبكى أسفًا على الحياة ، فلا يحزنك أمرى حين تعلمه ، وعش سعيدًا بين قومك ، وأهلك ، وأكرم أباك فهو خير الآباء وأحبب أختك فهى أطهر الفتيات ، وأوصيك خيرًا ببرودنس فهى فتاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لى ولك ، وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدى .

« إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحًا أخرى تماثلها وتقابلها ، وتسعد بلقائها وتشقى بفراقها . ولكنه قدر أن تضل كل روح عن أختها فى الحياة الأولى . فذلك شقاء الدنيا ، وأن تهتدى إليها فى الحياة الثانية . وتلك سعادة الآخرة .

« فإن فاتتنى سعادتى بك فى الأرض ، فسأنتظرها فى علياء السماء !»

وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة ، قد محا الدمع أكثرها فلم يبق منها واضحًا بعض الوضوح إلا كلمة « الوداع » !

***

بقية المذكـــرات

بقلم الخـادمة برودنس

١٤ فبراير ١٨٥١

« لم تستطع مرغريت يا سيدى ، أن تكتب لك أكثر مما كتبت ؛ لأن الطبيب منعها الحركة ، ولو أرادتها لعجزت عنها .

« أتذكر يا سيدى ذلك الجسم الغض الناعم ، الذى كان يموج بالنور موجًا ويشرق وراء بشرته إشراق الخمر فى كأسها ؟ لقد أصبح اليوم عظمًا مجلدًا وهيكلاً قائمًا لا يساوى ثمن النظر إليه !

« وا رحمتاه لك ! لقد مات كل شىء فيها إلا قلبها وشعورها ، وليتهما ماتا معها ؛ فإنه لا يعذبها شىء مثل خواطرها وأفكارها !

« لا يدخل من باب غرفتها داخل ، حتى ترفع نظرها إليه تظن أنك قد جئتها ، فإذا دنا منها ورأته أطبقت جفنيها على دمعة تنحدر من بينهما بالرغم منها .

« إنها لا تتكلم كثيرًا فإذا تكلمت كان أول حديثها : ألم يأت أرمان ؟ فإذا أجبتها أن لا ، سألت عن أمر آخر تتلهى به ، أو عادت إلى صمتها مرة أخرى .

« لقد رابها اليوم أن طبيبها لم يأتها ، فلما أردت أن أعتذر لها عنه لم تصدقنى ، وقالت : الآن عرفت كلمته التى ألقاها إليك بالأمس . فسكتُّ ، ولم أعرف ماذا أقول .»

١٤ فبراير ١٨٥١

« أصبح اليوم صوتها ضعيفًا جدًا لا أكاد أسمعه ، وأظلم بصرها فهى تنظر إلىّ ولا ترانى ، وقد أشارت إلىّ فى الصباح مرارًا أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجرى منها الهواء متدفقًا ، ولكنه لا يصل إلى صدرها .

« آه لو أستطيع يا سيدى أن أبيع حياتى لأشترى لها بضعة أنفاس تتردد فى صدرها ، أو بعض سنات من النوم تأوى إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلمنى ويعذبنى عذابًا شديدًا ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة !»

١٥ فبراير

« بعد صمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها ، ونادتنى بصوتها الخافت الضعيف فدنوت منها ، فقالت لى : أريد الكاهن فأتينى به . فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ؛ فغالبت عبراتى حتى خرجت من الغرفة ، فبكيت ما شاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له اسم المرأة التى يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه وقلت له : إن رحمة الله يا سيدى لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين . فأذعن بعد لأى وجاء معى فخلا بها ساعة ثم خرج ، فسألته :

أيرحمها الله يا سيدى ؟ قال : إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين . فحمدت الله على ذلك .

« ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى عضوًا من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان فى صدرها يترجح بين الصعود والهبوط .»

١٥ فبراير — ساعة الغروب

« إن مرغريت تتعذب كثيرًا يا سيدى ، وأحسب أنها تعالج سكرات

الموت .

« لم يقاس إنسان فى حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها . إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تذوب لها جبات القلوب .

« ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها فى سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها وأضجعتها فى مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منهما دمعتان كبيرتان ، وكأنما أحست بى فاعتنقتنى وضمتنى إليها ضمًّا شديدًا ، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزاعها وجهادها .»

١٥ فبراير — نصف الليل

« قُضى الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جثتها التى ستذهب غدًا إلى قبرها ، تلك غايتها وغاية كل حى ؛ فصبرًا على قضاء الله وبلائه !

« لقد هتفت باسمك كثيرًا يا سيدى فى ساعتها الأخيرة ، وكان آخر عهدها بالحياة أن نظرت إلىّ نظرة طويلة مملوءة حزنًا ودموعًا ! ثم حركت أصبعها حركة خفيفة ، وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذى كان ملقى بجانبها وقالت : « أرمان » ففهمت أنها توصينى أن أبلغه إليك ، ثم أسلمت روحها .

« عزيز علىّ يا سيدتى ما لقيت من العذاب قبل موتك ، وعزيز علىّ أن تموتى ، ولا تجدى بجانبك من يغمض عينيك ويلقى رداءك عليك سواى ! وفى سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التى ما حملت فى حياتها شرًا لمحسن ولا لمسىء ، وذلك الصدر الرحب الذى كان يسع الدنيا بأرضها وسمائها ثم يضيق عنها ، وذلك القلب النقى الأبيض الذى ما أضمر فى حياته غير الخير

أو الإحسان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان .»

بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت ، ثم أنارت حولها الشموع ، وبعثت إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ فى كتابه ، ومشت هى إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها .

ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شبحًا ماثلاً على باب الغرفة ، فمشت إليه فإذا هو أرمان فى لباس السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبة هائلة كتلك النظرة التى تسبق صرعات الجنون ، ثم استردها وألقاها عليها ، وسألها :

« من هذا المسجى على هذا السرير ؟» فبكت برودنس ولم تقل شيئًا ، فسقطت حقيبته من يده ، وجمد فى مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك .

ثم اندفع إلى سرير الميتة صارخًا يريد أن يلقى بنفسه عليه ، فأدركته برودنس ووقف الكاهن فى وجهه ، وقال له :

« احترم الموت أيها الفتى .» فاختنقت عبراته فى صدره وارتعد ارتعادًا شديدًا وسقط مغشيًا عليه .

فلم يستفق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير ، وقال :

« رحمة بى أيها الناس ؛ فقد فاتنى أن أودعها ، وهى حية ، فأذنوا لى أن أودعها ميتة .»

فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغطاء عن وجهها وقبلها فى جبينها ، وقال :

« الوداع يا أعز الناس عندى ! الوداع يا خير فتاة فى الأرض وأشرف روح فى السماء !» ثم أعاد الغطاء على وجهها ، وتراجع عنها وأذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكى وينتحب ، ولم يمش وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق موهان ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقول فى ندبه وبكائه :

« هأنذا أرى ابنتى تموت أمامى مرة أخرى ، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة بائسات من ضحايا تلك المقادير .»

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شىء ، وأصبحت مرغريت رهينة قبرها ، وأرمان طريح فراشه يقرأ فى مذكراتها ويبكى بكاء الثاكل المفجوع .

ثم اشتد به المرض بعد ذلك ، فلم تر برودنس بدًا من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ، ولبثوا بجانبه شهرًا يعللونه ويشتفون له ، حتى أبلّ ونجا من خطره .

ثم ذهبوا جميعًا إلى قبر مرغريت ليودعها قبل سفرهم ، فبكوا حوله بكاء شديدًا ، وكانت سوزان أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكى المرأة التى ضحت بنفسها فى سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوفال إلى ولده ، وقال له :

« أتغفر لى ذنبى يا بنىّ ؟ »

قال : « نعم يا أبتاه لأنها غفرت لك ذنبك إليها .» ثم انصرفوا .

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات المسيو دوفال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت بين جنبيه لوعة معتلجة ، لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها وزيارة قبرها من حين إلى حين .

« تمت »

الفهــرس

صفحة

اليتيم ٦

الشهداء ٢١

الحجاب ٤٠

الذكرى ٥٦

الهاوية ٧٢

الجزاء ٨٥

العقاب ١٠٠

الضحية ١١٩

مذكرات مرغريت ١٥٢

بقية المذكرات ١٧٧

مؤلفات أمير الشعراء أحمد شوقي

ديوان الشوقيات (١) فى السياسة والتاريخ والاجتماع

ديوان الشوقيات (٢) فى الخصوصيات

ديوان الشوقيات (٣) فى الحكايات

ديوان الشوقيات (٤) فى ديوان الأطفال

مسرحيـــات

١ ــ مجنون ليلى

٢ ــ مصرع كليوباترة

٣ ــ عنــترة

٤ ــ قمبيـز

٥ ــ على بك الكبير

٦ ــ الست هدى

٧ ــ أميرة الأندلس

مؤلفـات
مصطفى لطفى المنفلوطى

١ ــ الفضيلة ــ بول وفرجينى

٢ ــ الشاعر ــ سيرانو دى برجراك

٣ ــ فى سبيل التاج

٤ ــ النظرات (ثلاثة أجزاء)

٥ ــ العبـرات

٦ ــ ماجدولين